من وحي الغدير

كيف خطط رسول الله صلى الله عليه وآله للخلافة من بعده[1]

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين

ضرورة الإمامة:

إن الإمامة وولاية أمر الناس ضرورة اجتماعية لا يختلف فيها اثنان، وقد أطبق عليها جميع العقلاء، ولا يمكن لحياة المجتمع المتحضر ونظام معاشه أن يستقيم بدون إمام ورئيس يدير مع جهازه شؤون الأمة ويدبر أمورها. فوجود النظام الحاكم في المجتمع بمنزلة العقل في جسم

---

(١) محاضرتان ألقاهما سماحة الشيخ محمد اليعقوبي على طلبة الحوزة العلمية في مسجد الرأس الشريف المجاور لمرقد أمير المؤمنين (عليه السلام)، في النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير يومي (١٦، ١٧ ذي الحجة ١٤٢١هـ -١٢ ، ١٣/آذار/٢٠٠١) وقد أضاف إليهما بعض الزيادات الضرورية.

الإنسان الذي يوجّه بوصلة الحياة، وبدونه تحصل الفوضى والتشتت والصراعات وتضييع مصالح العباد والبلاد.

ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذلك: (لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل ف إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمن به السبُل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ أو يُستراح من فاجر)[1].

والحكم في الشرع ضروري كذلك فقد أجمع علماء الإسلام على ضرورة وجود إمام، وإذا كان بينهم خلاف ففي التفاصيل ككيفية تعيين الإمام ومؤهلاته وصلاحياته لا في أصل احتياج الأمة، فأبناء العامة يقولون بالشورى[2]، أو أن الأمر لمن غلب حتى لو قهر

---

(١) نهج البلاغة: ٨٧/١ الخطبة ٤٠.

(٢) البخاري/باب رجم الحبلى ١٢٠/٤ عن معالم المدرستين، المراجعات المراجعة ٨٠.

الأمة بالسيف[١] وتقمّص إمامتها قهراً، ونحن -الإمامية- نقول أنها بالنص[٢]، وأنها حق جعله الله تبارك وتعالى لمن اجتمعت فيه شروطها، سواء سمحت له الظروف بالقيام فعلاً بالأمر أو صودرت حريته ومُنع من ممارسة دوره كاملاً، كما في الحديث الشريف: (الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)[٣] أي قاما بالأمر أو قعدا عنه لأي سبب من الأسباب.

---

(١) الأحكام السلطانية ص٧-١١ لقاضي القضاة أبو يعلي الفراء الحنبلي - عن معالم المدرستين - أقوال مدرسة الخلفاء ص٥٥٨.

(٢) أحصى الصافي الكلبايكاني في كتابه (منتخب الأثر) أكثر من خمسين رواية في هذا المجال، وقال بعد ذلك النصوص الواردة في ساداتنا الأئمة الاثنا عشر بلغت في الكثرة حداً لا يسعه مثل هذا الكتاب وكتب أصحابنا في الإمامة وغيرها مشحون بها واستقصاؤها صعب جداً (منتخب الأثر ص١٤٥ والرواية الأولى منتخب الأثر ص٩٧ باب ٨ فيما يدل على الأئمة الاثنا عشر بأسمائهم (نقلا عن مدخل إلى الإمامة).

(٣) البحار ج١٦ باب ١١ ص ٣٠٧.

وقد اهتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الأمر بدقة، فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يُخرج سرية إلا عليها أمير مهما قلّ أفرادها، بل في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (الإمام الجائر خير من الفتنة)[١] و: إذا خرج اثنان للسفر فليؤمرا أحدهما[٢]، وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا خرج لغزوة لا يترك المدينة بدون خليفة له[٣]، بل روي في حديث: (والٍ ظلومٌ غشوم خيرٌ من فتنة تدوم)[٤]؛ لأنه به تحفظ الثغور وتقوم مصالح العباد، لذا تعامل الأئمة (عليهم السلام) بإيجابية مع السلطات

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني: ١٠٣/٢.

(٢) كتاب المحجة ج٤ آداب السفر عن أبو داود ج٢ ص٣٤ عن أبي هريرة عن النبي ص قوله (إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم).

(٣) معالم المدرستين / ج١ / ذكر من استخلف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على المدينة في غزواته.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ٢٣٦٧/٣ والغرر والدرر: ح ١٠١٠٩.

الحاكمة في ما فيه مصالح العباد وحفظ النظام الاجتماعي ورقي الدولة الإسلامية وصيانة كرامتها، إلى درجة أنهم جوزوا في بعض الظروف دفع الزكاة والخراج إلى السلطة وجعلوها مبرئة للذمة كأنها واصلة إليهم[1].

في ضوء هذه الضرورة المجمع عليها عقلاً وشرعاً كان من مسؤوليات حامل الرسالة -أي رسالة- ووظائفه بل أهمها على الإطلاق تعيين الخليفة والإمام البديل لعدة مصالح مهمة:

١- ديمومة الرسالة واستمراريتها في أداء دورها، فإن أية رسالة مهما كانت تمتلك من نقاط قوة - كرسالة الإسلام - تموت بموت صاحبها، فإنه من المقطوع به ارتباط الرسالات والدعوات بحامليها القيّمين عليها المدافعين عنها المستوعبين لأسرارها، لذلك فإنها تنتهي بنهاية صاحبها إلا أن يواصل الطريق من هو جدير بحملها، وأنت ترى الرسالات السماوية - وهي أكمل

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين، باب ٢٠.

الدعوات - حُرِّفت وشُوِّهت بعد فترة يسيرة من غياب أصحابها[١].

٢- قطع الطريق أمام غير المؤهلين لهذا المنصب الإلهي، فإن الإمرة والزعامة خصوصاً الزعامة الدينية بما لها من قدسية وهيبة وجاه من أهم ما تنزع إليه النفس الأمّارة بالسوء، ففي الحديث: (آخر ما ينزع من قلوب الصديقين حب الجاه)[٢] إذن سيكون المتربصون بها كثيرين والحالمون بها والساعون إلى تحصيلها أكثر. وقد اعترفوا أنه ما عانت الأمة من شيء كما عانت من مسألة الإمامة والخلافة وأن الويلات التي

---

(١) كمثال على ذلك المسيحية بمجرد أن رفع عيسى (عليه السلام) أصبح الإنجيل الذي هو حاوي على كل ما يتعلق بالرسالة عدة أناجيل مزورة وموضوعة كإنجيل متي ويوحنا ولوقا ومرقس فلم يبق من الدين المسيحي إلا الاسم.

(٢) المحجة البيضاء ج٦ / فصل حب الجاه ص١٠٧.

أصابتها والدماء التي سفكت ترجع في الأصل إلى هذا الأمر، وهذا واضح تأريخياً.

٣- صيانة الأمة من التشتت وحمايتها من التمزق، فإن من شأن تعدد المتصدين لهذا المنصب أن تتعدد الأحزاب والفرق الموالية لهم، وكلٌ يجرُّ النار إلى قرصه، فيتمزق أمر الأمة وتصبح طرائق قدداً، وها هي الأجيال بعد الأجيال تدفع ثمن التيه والضياع وآل أمرها إلى الانحلال، لذا قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣) ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(الأنفال:٤٦) وحبل الله الممدود إلى الخلق هما الثقلان كتاب الله وأهل بيت نبيه (صلوات الله عليهم أجمعين) كما دلت عليه النصوص الشريفة[١]. وقد أشارت الزهراء (سلام الله عليها) إلى هذه

---

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن) وقد تقدم في هذا الكتاب.

الفكرة المهمة في خطبتها فقالت: (وجعل إمامتنا نظاماً للملة)[1] أي بها تنتظم أمورهم وتستقر.

٤- إن حامل الرسالة لا يستطيع أن يستمر بمشروعه حتى النهاية ويقدم كل ما عنده قبل أن يطمئن إلى وجود البديل؛ لأنه قبل ذلك يخشى على مستقبل الرسالة، فإذا أحرز اجتماع الشروط في الشخص البديل استطاع أن يتقدم بلا تردد أو خوف على مستقبل الرسالة، هذا الخوف الذي أشار إليه نبي الله موسى (عليه السلام)، لذا كان أول دعاء له: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٩-٣٢) وفي كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام): (لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ خِيفَةً عَلَى نَفْسِه، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضُّلالِ)[2].

---

(١) البحار ج٦ باب ٢٣ ص ٣١٥.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ٤ ص٣٩.

هذه أمور يدركها كل عاقل، ويزداد الأمر وضوحاً كلما ازدادت أهمية الرسالة كدين الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين وخالداً إلى يوم القيامة، فهو - أي الإسلام - بهذه السعة والشمول طولاً -على مدى الزمان- وعرضاً -لجميع البشر-، وكلما تعاظم منصب الشخص الراحل والغائب عن الساحة ازدادت المسؤولية والأخطار حول المنصب.

وأشرف موقع هو إمامة المسلمين وولاية أمورهم وخلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التي قدّر لها أن تشمل شرق الأرض وغربها، كما بشر بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما كان يحفر مع المسلمين في الخندق وضرب على صخرتين فأضاءتا له[١] ولهم، وأكدها القرآن ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾(الفتح:٢٠) ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ

---

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني ج١ ص ٢٩٠.

قَرِيبٌ﴾ (الصف:١٣)، فكيف لا تتناوشه المطامع وتتجاذبه الأهواء.

أفمثل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يجهل هذه الأمور الواضحة، وهو المتصل بسبب إلى الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم، ٣-٤) وهو القائل: (من مات ولم يوصِ مات ميتة جاهلية)[1] فهل يكون هو (صلى الله عليه وآله وسلم) أول من يخرج عن ربقة الإسلام ويموت على الجاهلية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾(الكهف:٥)، أم يقال أن هذا الحديث وارد في الوصية بالمال ونحوه للورثة وغيرهم؟ فهل هذه الأمور أهم من الوصية بالأمة وحفظ كيانها من الضياع؟!

أم يقال أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) فوجئ بأجله قبل أن يفكر بمستقبل الأمة وقبل أن يستعد للتخطيط للبديل مهما كان شكله وصيغته، وهو الذي نعى نفسه مراراً وصرح بقرب وفاته في حجة الوداع،

---

(١) مناقب آل أبي طالب بن شهر آشوب ج١ ص ٢١٧.

وحينما قال: (إن جبرائيل كان يعارضني بالقرآن في السنة مرة، وعارضني في هذه السنة مرتين، وما ذلك إلا لدنو أجلي)[١].

أم يقال أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن حريصاً على الأمة ولا مهتماً بأمرها، فلتواجه قدرها بنفسها ولو آل أمرها إلى الفناء، ولتذهب أتعابه سدى ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾(النحل:٩٢)، وهذا لا يصدر من أبسط الناس؛ فالراعي لا يترك غنمه إذا خرج لحاجة أو سفر حتى يعين لها راعياً، ولم يفعلها الخلفاء من بعده، فالأول نص على الثاني، وهو يقول: إني أخشى أن ألقى الله وقد تركت أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) دون أن أولي عليها أحداً[٢]، وجعل الثاني الأمر شورى بين ستة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[٣]، وقد أرسلت إليه أم

---

(١) صحيح البخاري باب عرض جبرائيل القرآن على النبي.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ص١٦٤ - ١٦٥ في شرحه للخطبة الشقشقية.

(٣) راجع معالم المدرستين ج١ ص٥٤٤.

المؤمنين عائشة بعدما طُعِن: أن أوصِ من يخلفك، ولا تترك أمة محمد بعدك هملاً وبدون راعٍ.

فكيف برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أكمل العقلاء وسيد الحكماء، وهو يرى بعينه الأخطار المحدقة بالأمة من الداخل والخارج، ففي الداخل كان المنافقون والمرجفون في المدينة - على تعبير القرآن - والقائلون: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ (المنافقون:٨) وقد ازدادت شوكتهم بعد الفتح حيث استسلم الكثير ممن يتربص بالإسلام وبنبيه السوء رضوخاً للأمر الواقع، ولم يسلموا ولم يقتنعوا بالإسلام و﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(الحجرات:١٤).

وكانوا يعارضون تصرفات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علناً وينتقدونه ويشككون في صحة أفعاله، والشواهد على ذلك كثيرة كما في صلح الحديبية[1] حينما منعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله

---

(١) راجع نظريات الخليفتين: ج١.

وسلم) من التوقيع على وثيقة الصلح، وعندما عارضوا الإحلال من الإحرام في متعة الحج[١]، وحينما منعوه من كتابة كتاب لا يضلون بعده أبداً في رزية يوم الخميس[٢]،

---

(١) عن معالم المدرستين ج٢ : في رواية الصحابي البراء بن عازب بسنن بن ماجة ومسند أحمد ومحمد الزوائد قال: خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه فأحرمنا بالحج فلما قدمنا مكة، قال: (اجعلوا حجّكم عمرة) فقال الناس: يا رسول الله قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة؟ قال: (انظروا ما أمركم به فافعلوه) فردوا عليه القول، فغضب فانطلق ثم دخل على عائشة غضبان فرأت الغضب في وجهه، فقالت: من أغضبك أغضبه الله ، قال: (ما لي لا أغضب وأنا آمر أمراً فلا أُتبع).

(٢) رزية يوم الخميس: ما أخرجه البخاري بسنده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، قال: لما حضر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم

وحينما كانوا يصلّون نوافل رمضان جماعة في المسجد وقد نهاهم (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذلك مراراً[١]، وحينما تخلفوا عن جيش أسامة رغم لعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) للمتخلفين عنه[٢].

مضافاً إلى أن الانتشار السريع للإسلام وقصر فترته بالنسبة لعظمة الوظيفة التي جاء من أجلها، وهي

من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تحوموا عني، فكان بن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. (وقد تم التصرف في الحديث إذ نقلوا المعنى فقط لان اللفظ الثابت هو أن النبي يهجر ولكنهم حرفوه تهذيباً للعبارة ودفاعاً عن عمر. (المراجعات : المراجعة ٨٦).

(١) الوسائل : كتاب الصلاة باب عدم جواز الجماعة في صلاة النوافل في شهر رمضان، الحديث الأول.

(٢) راجع في استقصاء هذه الموارد كتاب (النص والاجتهاد) للسيد شرف الدين.

نقل أمة كاملة من حضيض الجاهلية وظلماتها إلى نور الإسلام وسعادته أدّى إلى وجود قاعدة عريضة في المجتمع لم تصل إلى درجة كافية من فهم الرسالة واستيعابها والتفاعل مع تفاصيلها، وهم معرضون للانهيار والهزيمة مع أول امتحان يواجههم في حالة غيابه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد أخبره بذلك القرآن الكريم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(آل عمران:١٤٤) وهو ما وقع فعلاً حين ارتدت الجزيرة ولم يبق على الإسلام إلا تلك الثلة القليلة في المدينة المنورة التي عركتها التجارب وصلّبت عودها الامتحانات المتتالية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

---

(١) وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة المائدة آية ٥٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد أشارت أم المؤمنين عائشة إلى هذا الانحراف الذي حصل في مسيرة المسلمين عندما كانت تحرّض على الثورة ضد الخليفة الثالث عثمان، يروي الطبري[1]: كانت السيدة عائشة من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته، وقالوا إنها كانت أول من سمّى عثمان نعثلاً (اسم أحد اليهود بالمدينة) وكانت تقول: (اقتلوا نعثلا ! قتل الله نعثلاً) هذا ولم يمرّ على وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أكثر من عقدين من الزمان.

وكان في الداخل اليهود الذين لا ينسون لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وللإسلام القضاء عليهم وتهجيرهم من ديارهم وقتل رجالهم وسبي نساءهم وزوال دولتهم ونفوذهم في المدينة، لذلك كانت هجمة

---

(١) تأريخ الطبري ٤٧٧/٣ وقد نقلناه عن كتاب (بنور فاطمة اهتديت)/١٩٠.

التشكيكات التي بثّوها في الأمة بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأسئلتهم المتنوعة الكثيرة التي كانت تعجز خليفة المسلمين وأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأصيب المسلمون بالإحباط والضعف والهزيمة أمامهم، وكانت حملة منظمة وليست اعتباطية ظهرت فجأة بعد غياب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإقصاء الخليفة الحق الذي كان لهم بالمرصاد رغم إبعاده عن القيادة الدنيوية، لكنه كان يرى مصلحة الدين وإعلاء كلمة التوحيد فوق كل شيء، حتى اشتهرت كلمة الخليفة الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)[1] وما علمنا أنه احتاج إلى أحد سواه[2].

---

(١) أخرجه سبط بن الجوزي ، أسد الغابة ٢٢/٤ ، الإصابة القسم ٢٧٠/١ ، تهذيب التهذيب ٣٢٧/٧، عن نظريات الخليفتين لنجاح الطائي.

(٢) جعل الخليل بن أحمد الفراهيدي ذلك دليلاً على إمامته حينما سئل ما الدليل على إمامة أمير المؤمنين وخلافته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: احتياج الكل إليه وعدم احتياجه للكل.

ومن الخارج كان هناك المتربصون بالإسلام شراً الذين أعيتهم الحيل في القضاء عليه، حيث بدأوا بتعذيب أصحابه (صلى الله عليه وآله وسلم) وقتلهم، ثم حاصروه ومن معه في شعب أبي طالب اقتصادياً واجتماعياً، ثم تآمروا على قتله فهاجر إلى المدينة[١] وبات علي في فراشه[٢] ثم جهزوا الجيوش لقتاله واستئصال أمره فلم يفلحوا في القضاء عليه (صلى الله عليه وآله وسلم)[٣]، ولم يبق أمامهم إلا نهاية حياته لتموت دعوته بموته (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل حاول بعضهم فعلاً اغتياله أكثر من مرة كمحاولة رؤساء بني عامر، والمحاولة التي جرت أثناء مسيره إلى تبوك حيث حاول بعض المتآمرين تنفير ناقته (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) حياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) نهاية الفصل السادس والفصل السابع لمحمد حسين هيكل.

(٢) حياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الفصل العاشر لمحمد حسين هيكل.

(٣) حياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الفصل الثالث عشر لمحمد حسين هيكل.

ليلقوه من السفح وتتقطع أوصاله، وقد أعلم (صلى الله عليه وآله وسلم) الصحابيّ حذيفة بن اليمان بأسمائهم حتى سمي صاحب سر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان الخليفة الثاني لا يصلي على أحد حتى يصلي حذيفة ليعلم أنه ليس من المنافقين[١].

وفي الخارج كانت أيضاً الدولتان الرومية والفارسية اللتان بدأتا تفكران جدياً في أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن غطى نوره الجزيرة كلها من اليمن جنوباً إلى تخوم الشام والعراق شمالاً، بل إنه (صلى الله عليه وآله وسلم) بدأ التحرش بالدولة الرومية في معركة مؤتة[٢] وغزوة تبوك، وأرسل الرسائل إليهم يدعوهم إلى الإسلام بلهجة الواثق بالنصر والمستعلي عليهم (أسلم تسلم).

---

(١) راجع (المحلى) لابن حزم الأندلسي، (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد عن (نظريات الخليفتين: محاولة اغتيال النبي).

(٢) معركة مؤتة: كانت في سنة ثمان من الهجرة.

كل هذه المصاعب والتحديات التي تواجه الأمة بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت نصب عينه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو صاحب القلب الرحيم الذي نذر حياته لله تبارك وتعالى ولإصلاح الإنسانية وإنقاذها من الظلمات إلى النور، وقد وصفه القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨)، فكيف يترك أمر الأمة سدى؟! ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(يونس:٣٥) و﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(فاطر:٣) فهذا الاحتمال -أي ترك الأمة سدىً من دون إرشادها إلى من يتولى أمرها- مرفوض قطعاً.

بقي احتمالان آخران تبنّت كل واحدٍ منهما طائفة من المسلمين.

عقيدة العامة في الإمامة:

الأول: -وهو الذي التزم به العامة- إيكال الأمر إلى الأمة نفسها فهي تختار من تشاء، وهو مرفوض أيضاً لعدة وجوه:-

١- قصور الأمة عن تحمل مثل هذه المسؤولية، وقد عجزت عن أقل من هذا الأمر عندما واجهت التحديات بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، حتى بعد أن نالت تربية إضافية خلال عقود من السنين.

ففي خلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما بدأ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتقاتلون بينهم لم يعرفوا حكم هذه الحالة، وقد نسب إلى أبي حنيفة قوله: (أنه لولا قتال علي للبغاة من المسلمين لما عرفنا حكم قتالهم إلى يوم القيامة).

وبعد ذلك بعقود مرّت الدولة الإسلامية بأزمة مع الدولة الرومية، عندما أرادت أن تسكّ عملة فيها شتم نبي الإسلام وتتداول في بلاد المسلمين، فأنقذ الموقف الإمام الباقر (عليه

السلام)[1]، وهكذا ظلّت الأمة عاجزة عن حل مشكلاتها لولا وجود الأئمة (عليهم السلام)[2]، حتى اكتملت التربية بعد (٢٦٠) عاماً بوفاة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فدخلت الأمة مرحلة (وسطية) بين الوجود الفعلي للإمام والغيبة التامة، فكانت الغيبة الصغرى التي استمرت (٧٠) عاماً لتبدأ الغيبة الكبرى بعد أن رسم الأئمة (عليهم السلام) كل المعالم الرئيسية والخطوط العامة لمسيرة الأمة، وقبل هذه المراحل المتتابعة من التربية كانت الأمة عاجزة.

---

(١) رواه الدميري في حياة الحيوان عن المحاسن والمساوئ للبيهقي ورواه بهذا المضمون عن شذرات العقود للمقريزي عن سيرة الأئمة الاثني عشر/القسم الثاني/الإمام الخامس محمد الباقر (عليه السلام) لهاشم معروف الحسني.

(٢) الغيبة الصغرى والكبرى للسيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر (قدس سره).

وكان هذا العجز واضحاً في الصدر الأول للإسلام لقرب عهدهم بالجاهلية الهمجية وقلة فترة الرسالة وانشغالهم عن استيعاب تفاصيلها، كما عبّر الخليفة الثاني حينما سئل عن قلة استفادته من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (ألهانا الصفق بالأسواق)[1]، ويقول بعضهم: كنّا نغتنم فرصة مجيء الإعرابي يسأل من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لنتعلم أحكام ديننا. فمع عجزهم عن هذه الأمور الجزئية، كيف يوكل إليهم أمر الإمامة التي بها قوام الأمة.

٢- لو كان لهذا الأمر وجود لبيّن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تفاصيله إلى الأمة، فيوضح صيغة الاختيار، ومن الذين لهم هذا الحق، وما هي شروط المرشحين للإمامة وضوابط الاختيار، ومن

---

(١) صحيح مسلم ٢ ص٢٣٤ في كتاب الآداب، صحيح البخاري ٣ ص٨٣٧، مسند أحمد ٣ ص١٩، سنن الدارمي ٢ ص٢٧٤، سنن ابن داود ٢ ص٣٢٠، مشكل الآثار ج١ ص٤٩٩. (عن كتاب الغدير ج٦ ص١٥٨).

هو الحاكم فيها عند الاختلاف، وهكذا. ونحن نعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يغفل عن أبسط تفاصيل الشريعة، كآداب المائدة وأحكام التخلي، فكيف يغفل عن مسألة الإمامة وهي أصل الشريعة وأساسها ؟! .

٣- عدم التزام نفس الخلفاء الذين أعقبوه بمبدأ الاختيار، فالأول نص على الثاني[١]، والثاني جعله بين ستة من المهاجرين، فهل تراهم أول مخالفين لسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[٢]، بل إن الخليفة الثاني يقر ويعترف (أن بيعة أبي بكر فلتة (أو فتنة) وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه كائناً من كان)[٣].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج١ شرح الخطبة الشقشقية.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج١ شرح الخطبة الشقشقية، سيرة الأئمة ج١.

(٣) شرح النهج ج٢ ص٢٣، المراجعات / المراجعة ٨٠، مسند أحمد ٥٥/١، البخاري ١١١/٤، تأريخ الطبري ٤٤٦/٢. (عن نظريات الخليفتين).

٤- إن هذا المنصب العظيم له مؤهلاته الدقيقة التي لا يعلمها إلا المطلع على الأسرار ومن لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وأولها العصمة؛ لاشمئزاز الناس من الأخذ ممن يتورط في الذنوب، وكما يظهر من الآية الشريفة ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة:١٢٤)، إنها مرتبة فوق النبوة والرسالة ولا يبلغها الرسول إلا بعد اجتيازه لامتحانات عسيرة، وقد ورد في تفسيرها أن الله اتخذ إبراهيم عبداً خالص العبودية، أي معصوماً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، ثم ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، ونجح في تلك الاختبارات فاستحق التكريم الإلهي ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤، راجع تفسير الميزان وأصول

وأنت لو استقرأت الآيات الشريفة وجدتها تنسب الإمامة إلى الجعل الإلهي، كالآية المتقدمة وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾(الأنبياء:٧٣)، وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(القصص:٥)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤)، لذا قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾(القصص:٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(الأحزاب:٣٦).

٥- إن كون الإمامة بالتعيين والنص الإلهي مرتكز في أذهان المسلمين عامة حتى عند من لم يعتقدوا به ظاهراً، لكن كلماتهم وأفعالهم تبرز ذلك،

الكافي/كتاب الحجة.

والشاهد على ذلك ما ورد في روايات عديدة أن الناس كانوا يرددون قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام:١٢٤) عند ما يطلع أحدهم عن كثب على سيرة أهل البيت (عليهم السلام) ومواقفهم النبيلة السامية، فكأنه مرتكز في أذهانهم جميعاً أن حمل الرسالة أمر مجعول من قبل الله تبارك وتعالى، وليس لأحد أن يتدخل فيه.

٦- إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه لم يعط لنفسه الحق في تنصيب من يلي الأمة، وإنما أوكل الأمر إلى الاختيار الإلهي، ففي سيرة ابن هشام[1] لما دعا الرسول بني عامر للإسلام، وقد جاءوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (الأمر لله يضعه

(١) السيرة النبوية ٤٢٤/٢ .

حيث يشاء). إذا كان الأمر كذلك فكيف يُدعى إيكاله إلى الأمة.

عقيدة مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في الإمامة:

الثاني: ولم يبق إلا الاحتمال الآخر، وقد تبنته مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، وأرسى قواعده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واستوعبه الصفوة من أصحابه ودافعوا عنه وصرحوا به رغم الوعيد والتهديد ومضوا عليه شهوداً وشهداء.

وهذا موافق لسنة الله التي جرت في أنبيائه ورسله حيث كان لهم جميعاً أوصياء[1]، فلماذا لا يكون لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصي ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾(الأحقاف:٩) ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣)، وقد

---

(١) وقد سلسل المسعودي في كتاب (إثبات الوصية) اتصال الحجج وأوصياء الأنبياء من لدن آدم حتى خاتم النبيين - صلوات الله عليهم أجمعين- وأوصياءه. عن معالم المدرستين ج١ ص٢٨٣.

أُلفت كتب عديدة في هذا المجال بعنوان (إثبات الوصية) وأشهرها للمسعودي[١]، وهذا المسلك يقتضي تهيئة الشخص البديل وإعداده ليكون مؤهلاً لمواصلة وظائف ومسؤوليات الإمام والخلافة والقيادة النائبة بشكل تام وكامل وفاعل.

وهذا الاحتمال يبدو منسجماً مع النتائج التي تمخضت عن التحليل السابق وفي ضوء القابليات والمؤهلات التي اجتمعت في أمير المؤمنين[٢] الذي قيل في

---

(١) المسعودي هو: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود توفي سنة ٣٤٦هـ، وفي ترجمته بطبقات الشافعية ٣٠٧/٢ قيل كان معتزلي العقيدة، وأشار إلى هذا الكتاب الكتبي في فوات الوفيات ٤٥/٢، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ٩٤/١٣ وقالا: له كتاب البيان في أسماء الأئمة، وفي الميزان لابن حجر ٢٢٤/٤: له كتاب تعيين الخليفة، سماه في الذريعة وغيرها: إثبات الوصية. (معالم المدرستين ج٢).

(٢) وأنا إلى هنا أتكلم بشكل موضوعي ووفق الظروف المنظورة بعيداً عن النصوص وأقيم سلوك رسول الله

كثرة فضائله: (لقد أخفى أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفاها أعداؤه حسداً وحقداً، وظهر ما بين ذلك ما ملأ الخافقين)[١]، وعن أحمد بن حنبل: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب)[٢].

وكان تميزه واضحاً عن بقية أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بكل صفات الكمال، وكان التفاف الواعين المخلصين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حوله معروفاً في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعد وفاته (صلى الله عليه

(صلى الله عليه وآله وسلم) كمؤسس أمة ومنشئ مجتمع مدني جديد وقائد ناجح حكيم.

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر ج١ علي وبيت المال ص٣١٩ ... القول للحسن البصري في جواب من سأله عما يحدّث الناس عنه.

(٢) مستدرك الحاكم ١٠٧/٣ بحسب كتاب (بنور فاطمة اهتديت) /١٣٦.

وآله وسلم)، كسلمان[١]، وأبي ذر[٢]، والمقداد[٣]، وعمار[٤]، وعزّز ذلك الرعاية الخاصة والإعداد المركز

---

(١) سلمان الفارسي أو المحمدي: كان أكثر أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) علماً وحكمة، وكان والياً على المدائن في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، توفي في المدائن التي كان والياً عليها في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين وقيل أول سنة ست وثلاثين وغسله ودفنه أمير المؤمنين (عليه السلام).

(٢) أبو ذر: جندب بن جنادة: تقدم إسلامه وتأخرت هجرته، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، توفي منفياً بالربذة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.

(٣) المقداد بن الأسود الكندي: قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة من أصحابي واخبرني أنه يحبهم، فقيل: من هم ؟ فقال: علي والمقداد وسلمان وأبو ذر) .. توفي سنة ٣٣ هجرية. (الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥١/٣، والإصابة ٤٣٣/٣ - ٤٣٤ عن معالم المدرستين ج١).

(٤) أبو اليقظان عمار بن ياسر: أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان المشركون يخرجون

الذي كان يحيطه به (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ نعومة أظفاره والتي وصفها أمير المؤمنين نفسه بقوله: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه- بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه - مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ

عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم فمر بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، فمات ياسر في العذاب وطعنت أمه بحربة أبي جهل، شهد عمار المشاهد كلها مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقتل بصفين مع علي (عليه السلام) وقد جاوز التسعين من عمره.

سَنَة بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ. وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسلام غَيْرَ رَسُول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله - وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا هذه الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: (هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ منْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ)[1].

وهكذا هو منه (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى فارقت روحه الدنيا، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ منْ أَصْحَاب مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله - أَنِّي لَمْ أُرِدْ عَلَى الله وَلاَ عَلَى رَسُوله سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا. وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله - وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى

---

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده، ج٢ ص١٥٧.

وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَه - صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله - وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّت الدَّارُ والأَفْنِيَةُ: مَلَأٌ يُهْبِطُ، وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ[1] مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْه حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِه. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً؟)[2].

ولقد أدى (عليه السلام) دوره بنجاح بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وحفظ الإسلام من الضياع، وكان وجوده والأئمة من بنيه بحق أماناً للأمة من الانحراف، بحيث يستغيث الخليفة الثاني ويتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن[3]، فكانت خلافة أمير المؤمنين لمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإمامة الخلق من بعده نتيجة طبيعية ومنطقية لتسلسل التفكير أعلاه لا يسع أي منصف أن يحيد عنها، ولم يكن النص الذي سنشير إليه - وهو حديث الغدير - هو الذي

---

(١) الهينمة: الصوت الخفي.

(٢) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده، ج٢ ص١٧١-١٧٢.

(٣) أشار إلى كلمته المشهورة (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن).

جعل من علي (عليه السلام) إماماً وخليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يناقشوا في دلالته والمراد منه، لا لشيء إلا لتصحيح الواقع الذي حصل بأي ثمن كان وبأية طريقة، ولو بإنكار وجود الشمس في رابعة النهار. فعلي (عليه السلام) هو الإمام بما حمله من صفات الكمال قبل النص وإنما جاء النص للإشارة إليه ولتعريفه ولقطع العذر وإتمام الحجة على المخالفين ولحسم الموقف ووضع النقاط على الحروف - كما يقولون - .

ولعظمة هذه المسألة وأهميتها فقد كان التخطيط والتمهيد لها يؤرق عين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقضّ مضجعه، فإنه يخشى ردود الفعل من هذه الأمة وهو خوف محمود كخوف موسى (عليه السلام) الذي ذكره القرآن وأشرنا إليه، ليس شخصياً وإنما على مستقبل الأمة التي هي جديدة عهد بالإسلام وما زالت رواسب الجاهلية لم تنمح من ذاكرتها، ومازال التعصب

يتحكم فيها[1]، فكيف يستطيع أن يضمن ولاءها لهذا القرار الهام الذي يصعب على النفوس الحالمة بالخلافة والقلوب المملوءة حسداً وحقداً على علي (عليه السلام) أن تنصاع إليه، كذاك الفهري الذي ما إن سمع بحديث الغدير وتنصيب علي (عليه السلام) خليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومبايعة المسلمين له حتى جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال

---

(١) لاحظ كشاهد على ذلك كيف أن بشير بن سعد وأسيد بن حضير بادرا إلى بيعة أبي بكر خشية أن يفوز بها سعد بن عبادة.

عن كتاب النص والاجتهاد المورد الأول يوم السقيفة ص٨٠ .. واجتماع أكثر الأنصار في السقيفة يرشحون سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، لكن ابن عمه بشير بن سعد بن ثعلبه الخزرجي وأسيد بن الخضير سيد الأوس كانا ينافسانه في السيادة، فحسداه على هذا الترشيح وخافا أن يتم له الأمر فأضمرا له الحبكة مجمعين على صرف الأمر عنه بكل ما لديهما من وسيلة وصافقهما على ذلك وعويم بن ساعدة الأوسي، ومعن بن عدي حليف الأنصار .. وكان مع ذلك ذوي بغض وشحناء لسعد بن أبي عبادة...

له: هذا الأمر منك أم من الله؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): إنه من الله. فقال: إن كان هذا من الله فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم. فما خرج منه (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى نزلت عليه صاعقة من السماء. وقد ورد أنه سبب نزول قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ، لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (المعارج: ١-٢)[1].

---

(١) روى الثعلبي الذي هو من قدوة مفسري المخالفين في شأن نزولها -انظر هامش ج٨ تفسير الرازي لأبي مسعود ص٢٩٢ والسيرة الحلبية ج٣ ص٣٠٢ ونور الأبصار ص٦٩- أنه لما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بغدير خم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي (عليه السلام) فقال من كنت مولاه فعلي مولاه فشاع ذلك وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى ... النبي (صلى الله عليه وآله) وهو في ملأ من أصحابه، فقال: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا اله إلا الله وانك رسول الله ففعلناه وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلنا وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان فقبلناه وأمرتنا أن نحج البيت فقبلناه ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا

وبالمقابل كان (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يستطيع السكوت عن إنفاذ هذا الأمر وهو يرى نهايته تقترب، والأعداء يتربصون بدينه الدوائر، فكيف يهدأ له بال ويقرّ له قرار قبل أن تنعقد البيعة لعلي (عليه السلام).

حتى أذن الله تبارك وتعالى له بالتبليغ، بل أمره به وطمأنه من مخاوفه هذه بأنه سيعصمه من الناس، وبين أهمية هذا الأمر بأنه وحده في كفة وباقي الرسالة كلها في كفة، فقال عز من قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ

وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه وهذا شيء منك أم من الله، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): والذي لا اله إلا هو من الله، فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء واتنا بعذاب اليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله وانزل الله تعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ، لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ، مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (حق اليقين في معرفة أصول الدين ج١ / الآية الثالثة الدالة على أن الإمام بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو علي (عليه السلام).

مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(المائدة:٦٧).

فليس غريباً أن تدرج هذه الآية المباركة وآية الولاية التي سبقتها ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(المائدة:٥٥) في سورة المائدة التي يستشف المتأمل فيها أن غرضها تأسيس المجتمع المسلم، وبيان مميزاته الرئيسية ومقوماته وأسس كيانه، وعرض نقاط الفرق بين المجتمع الذي يقوم على أساس الإسلام والمجتمع الذي ليس كذلك كائناً ما كان وإن سمى نفسه مسلماً، فإنه في مفهوم القرآن (مجتمع جاهلي)، فالبينونة بين المجتمعين كاملة في الأحكام (كآيات أوفوا بالعقود وحرمة الكلب والخنزير وغيرها) وفي من له حق الولاية (فقد تكررت كثيراً آيات ولاية المؤمنين والبراءة من الكافرين)، وفي الشريعة التي تنظم الحياة ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، هُمُ الظَّالِمُونَ، هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(المائدة، ٤٤،

٤٥، ٤٧، ٥٠) وتمامها وعقد نظامها آية التبليغ وآية الولاية.

ثم جعل يوم الحسم هذا أعظم عيد في الإسلام، ففيه كمل الدين وتمت النعمة بعقد البيعة والولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام)، وامتنّ الله تبارك وتعالى على عباده بذلك فقال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً﴾(المائدة:٣).

وجلس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتقبل التهاني بهذا الإنجاز العظيم ويقول لأصحابه: هنئوني هنئوني بابن عمي أمير المؤمنين. وأفرد له خباءً ليسلموا عليه ويبايعوا علياً خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين، واستأذنه شاعره حسان بن ثابت أن يقول شعراً في المناسبة، فأذن له فأنشأ:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخمٍ فأسمع بالرسول مناديا

وفيها يقول:

فقال له: قم يا عليُّ فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

وأول من سلم عليه الشيخان وهما يقولان له: بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[١].

وقد نظم هذه الحقيقة التأريخية الدامغة أجيال من الشعراء جيلاً بعد جيل[٢]، ومنهم عمرو بن العاص

---

(١) أخرج الإمام الواحدي في تفسير (يا أيها الرسول بلغ ...) من طريقين معتبرين عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية يوم غدير خم بعلي بن أبي طالب، فلما بلغ الرسالة بنصه (صلى الله عليه وآله) على علي (عليه السلام) بالإمام وعهد إليه بالخلافة أنزل الله عز وجل ﴿اليوم أكملت لكم ...﴾ وأول من هنأ علي (عليه السلام) في يوم الغدير هما: أبو بكر وعمر بقولهما: أمسيت يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة. (أخرجه الدار قطني - الفصل الخامس من الباب الأول من صواعق بن حجر ص٢٦ وأحمد نحو هذا القول عن عمر من حديث البراء بن عازب ص٢٨١ ج٤ من مسنده). (المراجعات ٥٤ وما بعدها).

(٢) راجع الموسوعة الفريدة (الغدير) للشيخ الأميني (قدس سره).

الخصم الألدّ لعلي بن أبي طالب في قصيدته الجلجلية التي بعثها إلى معاوية يذكّره ببعض الحقائق التي تناساها، ومما جاء فيها:

وكم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصصةً في علي
فأنحلَه إمرة المؤمنين ... من الله مستخلف المنحل
وقال: فمن كنت مولىً له ... فهذا له اليوم نعم الولي
فبخبخَ شيخُك لما رأى ... عُرى عقد حيدر لم تُحلل
فقال: وليكم فاحفظوه ... فمدخله فيكم مدخلي

(راجع كتاب الغدير في ترجمة عمرو بن العاص).

وقد جاء هذا البيان - خطبة الغدير - منه (صلى الله عليه وآله) متوّجاً لبيانات سابقة لا تقل عنه وضوحاً: (إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)[1]، وإن: (علي مع الحق والحق مع علي)[1] وإنه

(١) حديث المنزلة: عن الإمام أحمد في الجزء الأول من مسنده في آخر صفحة ٣٣٠ والإمام النسائي في خصائصه العلوية ص٦ والحاكم في ج٣ من صحيحه المستدرك ص١٢٣

(عليه السلام) وأهل بيته كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك[٢]، وأنهم والقرآن صنوان لا يفترقان، وثقلان ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبدا[٣].. وغيرها كثير.

لماذا كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام:

إن عظمة هذا اليوم لها مناشئ عديدة فهو:

١- يوم الطمأنينة على بقاء الرسالة واستمراريتها بعد أن انتقل ارتباطها من شخص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فيمكن أن تموت بموته، إلى نوع رسول الله (صلى الله عليه وآله

والذهبي في تلخيصه معترفاً بصحته عن عمرو بن ميمون (المراجعات : ٢٦).

(١) البحار ج١٠ باب ٢٦ ص٤٣٢.

(٢) الوسائل : كتاب القضاء، صفات القاضي، باب٥، حديث١٠.

(٣) الإمام أحمد والترمذي بعدة طرق تجدها في المراجعات : المراجعة ٨٠.

وسلم)، أي إلى كل من تتجمع فيه صفات وشروط الإمامة فلم يعد وجودها منوطاً بشخصه (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢- وهو يوم الانتصار النهائي على مكائد الأعداء الذين لم يبق في جعبتهم من سلاح إلا موت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لتنتهي دعوته ففقدوا هذا الأمل الشيطاني بتنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) خليفة.

٣- وهو يوم حماية الأمة من التشتت ومن الضياع بتعيين الحبل الذي إن اعتصموا به بقي ريحهم وكيانهم وانتشر أمرهم وعلت كلمتهم.

٤- وهو يوم صيانتها من الانحراف بعد أن نصب لهم العلم والمحور الذي يلتفون حوله.

٥- وهو يوم أمان الأرض ومن عليها من الفناء، لما ورد في الحديث: (إن الأرض لا تخلو من حجة

ظـاهر أو مـستور، ولـولاه لـساخت الأرض بأهلها)[1].

٦- وهو يوم الهداية إلى الدين ووضوح الحق بمعرفة الحجة كما في الدعاء: (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني نبيك، فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني)[2].

٧- وهو يوم الإمامة التي هي أس الإسلام وسنامه، فهو لا يقل أهمية عن يوم البعثة النبوية الذي انبثق فيه نور الإسلام.

لأجل هذا كله كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام كما نطقت به الروايات الشريفة، وفي ذلك اليوم تبلورت فكرة (التشيع) ونضجت ثمارها وأينعت بعد أن كان قد زرع بذورها رسول الله (صلى الله عليه وآله

---

(١) البحار ج٣٦، باب٤١، ص٣١٥.

(٢) مفاتيح الجنان : الفصل السادس ، دعاء زمن الغيبة.

وسلم) في مناسبات عديدة، ابتداءً من يوم الدار وإنذار عشيرته الأقربين في أوائل البعثة الشريفة[1].

---

(١) حياة محمد : الفصل الخامس، ص١٤٢، لمحمد حسين هيكل، المراجعات: مراجعة ٢٠ قال فيها حين أنزل الله تعالى على الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ فدعاهم إلى دار عمه أبي طالب وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيد رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، والحديث في ذلك من صحاح السنة المأثورة، وفي آخره قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على أمري هذا على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها غير علي -وكان أصغرهم- إذ قام فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله برقبته وقال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

ولهج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الاسم المحبب له ولأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) في مناسبات عديدة، أنقل بعضها من كتب العامة ليكون الخطاب أبلغ في الحجة:

١- في الدر المنثور للسيوطي ج٨/ص٥٨٩: روى بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنّا عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأقبل علي (عليه السلام)، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة)، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾(البينة:٧).

٢- ابن حجر في الصواعق المحرقة الباب (١١) الفصل الأول: الآية الحادية عشرة:

عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام): (هم أنت وشيعتك

تأتون يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضاباً مقمحين).

٣- القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج٢ ص٦١.

عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة)، ومن المصادر التي ذكرت هذه الرواية في تفسير الآية الشريفة: تفسير الطبري وروح المعاني وكفاية الكنجي الشافعي وغيرها[1].

كيف خطط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للخلافة من بعده:

لقد كان تخطيط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذا الأمر أي تعيين الخليفة والامتداد له على ثلاثة أشكال:

---

(١) نقلاً عن كتاب (بنور فاطمة اهتديت) للكاتب والمحامي السوداني عبد المنعم حسن/ص٤٩.

الأول: النص المباشر والواضح عليه، وعدم ترك الأمر مجملاً تتقاذفه التأويلات والتفسيرات، وقد تقدم فيما مضى فكرة عنه، وأنصح بقراءة كتاب (المراجعات) للسيد شرف الدين[1] للاطلاع على المزيد من الأدلة والنصوص ببيان قوي وحجة دامغة، مما لو دخلت فيه سأخرج عن الاتجاه العام الذي رسمته لهذا البحث.

الثاني: الإشادة بالأشخاص المخلصين الواعين الذين يعلم (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم أنهم ثابتون على الخط وواعون للهدف وراسخون في المبدأ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقولون كلمة الحق مهما كان الثمن، كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار وذي الشهادتين

---

(١) السيد عبد الحسين بن السيد يوسف بن السيد جواد بن السيد إسماعيل بن محمد جد الأسرتين آل الصدر وآل شرف الدين بن السيد إبراهيم (الملقب بشرف الدين) ولد في الكاظمية سنة ١٢٩٠ هجرية، كتابه المراجعات: هو مجموعة مراجعات جرت بينه وبين المرحوم علامة مصر الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر، توفي السيد في ٨ جماد الثانية ١٣٧٧ هجرية.

وبلال الحبشي وأم ايمن وأم سلمة، فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يردد: (سلمان منّا أهل البيت)[١] (إن الجنة لتشتاق إلى أربعة: سلمان والمقداد وأبي ذر وعمار)[٢] (ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذر)[٣] (مُلئ عمار إيماناً من قرنه إلى أخمص قدميه)[٤] و(أم أيمن امرأة من أهل الجنة)[٥] و(بلال من أهل الجنة)[٦] وقال لأم سلمة: (لستِ من أهل البيت، لكنك على خير)[٧].

---

(١) البحار ج١، باب٨، ص١٢٣.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢ خاتمة الكتاب، باب١٠، ص٣٢٤.
(٣) الوسائل ج١٠، باب٢، ص٢٣، سنن ابن ماجه المقدمة باب١١، وسنن الترمذي كتاب المناقب، مناقب أبي ذر، ومسند أحمد، وطبقات ابن سعد. (عن معالم المدرستين).
(٤) الوسائل : ج١٩، باب٦، ص٣٥.
(٥) البحار : ج١٧، باب٤، ص٣٧٨.
(٦) البحار : ج٢٢، باب٣٧، ص١٤٢.
(٧) أخرجه الطبراني في الدر المنثور، وروي عن طريق الخاصة.

فكانت هذه الأوسمة تخطيطاً منه (صلى الله عليه وآله وسلم) للمستقبل إذا انقلبت الأمة على الأعقاب وتاهت بها السبل في بحر الظلمات، فسيكون هؤلاء أعمدة نور تضيء لطلاب الحقيقة الدرب، وتدلّهم على شاطئ الإيمان وقد أدّوا دورهم وقالوا كلمة الحق فثبتوها في لوح التأريخ[1] لو كان هناك من يسمع، بينما لم نسمع منه (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمة واحدة في أولئك الذين انحرفوا عن علي (عليه السلام) وخذلوه، رغم أن منهم من كان له مواقف مشهورة كالزبير بن العوام.

الثالث: وضع ضوابط يُعرف بها المستحقون لهذا الأمر وتمييزهم عمّن هم ليسوا أهلاً له، والذين يستخدمون أساليب لم يقم عليها دليل شرعي من أجل تثبيت استحقاقهم، أو تشويه صورة أهل الحق وإزالتهم عن موقعهم، كما كانوا يقولون: (إن قريش نظرت فاختارت، وإنها أبت أن تجتمع النبوة والخلافة في بني

---

(١) راجع كتاب الاحتجاج للطبرسي.

هاشم)[1] و(إن فلان - وهو الأول - أسنّ من عليّ)[2] و(إن علياً فيه دعابة)[3]، والله تبارك وتعالى يخاطبهم ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(النساء:٦٥)، ويقول تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(الحشر:٧)، وقال تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾(القصص:٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(الأحزاب:٣٦) فما قيمة رأي أحد واختياره كائناً من كان بعد قضاء الله تبارك وتعالى واختياره

---

(١) ابن أبي الحديد : ص١٠٧ من المجلد الثالث في شرح النهج، ابن الأثير : ص٢٤ ج٣ من كامله. (عن المراجعات : مراجعة ٨٤). سيرة الأئمة : ج١ ص٣٣٢ هاشم معروف الحسني.

(٢) الغدير : ج٢ ص١٢٨.

(٣) شرح النهج : ج١ لابن أبي الحديد عن شيخه أبو عثمان في كتابه السفيانية، سيرة الأئمة : ج١ ص٣٣٨.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(البقرة:٩٠).

فبهذه المعايير والضوابط التي سنذكرها إن شاء الله تعالى تستطيع الأمة أن تفرز هؤلاء المتطفلين مهما مارسوا من أساليب الخداع والتضليل، المتقمصين لأمرها بغير حق، (فمنها) قوله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة: ١٢٤)، والعهد هو الإمامة؛ لأنها جاءت جواباً على سؤال إبراهيم (عليه السلام) بعد جعله إماماً، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وقد فُسّرت في الروايات الشريفة بمن سجد لصنم يوماً ما[1]، فإن من فعل ذلك سفيه، ولا

---

(١) روى الفقيه ابن المغازي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): انتهت الدعوة إلي وإلى علي (عليه السلام) ولم يسجد أحدنا لصنم فاتخذني نبياً واتخذ علي وصياً. (حق اليقين في معرفة أصول الدين - الحادي عشر من الآيات الدالة على إمامة علي (عليه السلام).

يكون السفيه إمام التقي كما في الحديث[1]، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣).

(ومنها) قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾(الحديد:١٠).

(ومنها) قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يلي أمر هذه الأمة طليق).

(ومنها) قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (فاطمة بضعة مني، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها)[2].

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (يا عمار تقتلك الفئة الباغية)[3].

(ومنها) حشدُهُ (صلى الله عليه وآله وسلم) المعادين لخط الإمامة، وفيهم شيوخ قريش في جيش

---

(١) الكافي : كتاب الحجة، حديث ٤٣٨، المجلد الثاني.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة : ١٤/١، أعلام النساء : ٣١٤/٣. (عن نظريات الخليفتين ج١).

(٣) الكافي: ١١/٥.

أسامة ذي السبعة عشر ربيعاً، ولعنه من تخلف عن جيش أسامة، وأمر بإنفاذه فوراً[1]، وكان ذلك منه (صلى الله عليه وآله وسلم) لإخلاء الساحة من الذين لا ينصاعون لإمامة أمير المؤمنين (عليه السلام).

وبملاحظة هذه المعايير والضوابط تكتشف كيف خطط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لحصر الأمر بعلي (عليه السلام)، فبعض المتصدين ممن أغضب فاطمة (عليها السلام) وماتت وهي واجدة عليهم، كما أشهدتهم (صلوات الله عليها) على ذلك، فنالوا بذلك غضب الله تبارك وتعالى، وهل يلي أمر الأمة أحد من المغضوب عليهم، ثم هم من الظالمين الذين سجدوا للأصنام ردحاً طويلاً من الزمن، فلا ينالهم عهد الله تعالى، فكيف يكون أحدهم إماماً لمن كرم الله وجهه عن

---

(١) الشهرستاني في المقدمة الرابعة من كتاب الملل والنحل. (المراجعات : مراجعة ٩٠، النص والاجتهاد - سرية جيش أسامة).

ذلك -كما يعترفون- وهم أيضاً ممن تخلفوا عن جيش أسامة فينالهم حكمه.

وبعضهم لم يقاتلوا لا قبل الفتح ولا بعده، وهزائمهم في الحروب معروفة، ومنهم من ولّى منهزماً في معركة أحد لا يلوي على شيء ثلاثة أيام، حتى بلغ تخوم الشام، فقيل له: إن الأمر لا يستحق ذلك وقد عاد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سالماً إلى المدينة.

ومعاوية ومروان ممن أسلموا بل استسلموا بعد الفتح، فلا يستوون مع من آمن وأنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم من الطلقاء[1] فلا يحق لهم ولاية أمر الأمة. وهم من البغاة، لأنهم قتلوا عماراً في صفين، فكيف يلي أمر الأمة باغٍ أثيم[2].

---

(١) مستدرك نهج البلاغة : الباب الثاني، كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى معاوية وقوله: (...واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الإمامة...).

(٢) البحار : ج٣٦، باب٤١، ص٣٢٧، النص والاجتهاد : المورد ٩٥ حرب معاوية لعلي (عليه السلام).

فلو كانت الأمة واعية لتلمست طريقها بوضوح، حيث لم يترك لها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عذراً، فهل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عاطفياً وبدافع الحب لابنته حين قال هذا الكلام، وهل سمعت بأحد غيور يرتقي المنبر ويثني على مزايا ابنته ؟! لا طبعاً خصوصاً في مثل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي يصفه القرآن ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم:٣-٤). وإنما المسألة أبعد من ذلك، إنه يريد أن ينصب لهم ميزاناً يعرفون به الحق والباطل لو اختلطا عليهم، وإن كان الأمر واضحاً لكن قلبه الكبير ورحمته ورأفته بالأمة أبت إلا أن يوالي الحجج على هذه الأمة وينصب لها العلامات تلو العلامات حتى وهو على فراش المرض في رزية الخميس كما يسميها ابن عباس[1].

ولأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعلم أن أساليب التضليل كثيرة ووسائل الضغط قوية وشرسة،

---

(١) المراجعات : المراجعة ٨٦.

فالنص - وهو الشكل الأول من التخطيط - يُؤوّل ويُحرّف، وهذه الثلة المخلصة - وهو الشكل الثاني - يُضيّق عليها وتحبس أنفاسها، فأبو ذر ينفى إلى الربذة حتى يموت غريباً[١]، وعمار وعبد الله بن مسعود[٢] يداس بطنه وتوجأ عنقه، وأم أيمن امرأة أعجمية لا تقبل لها شهادة[٣]، والحسن والحسين طفلان صغيران[٤]، وعليّ يجر النار إلى قرصه فلا تقبل له ولا لولديه

(١) الوسائل : ج٢٢ باب ١٢ ص٣٩٥، معالم المدرستين ج١ ص٤٥٩.

(٢) ابن مسعود: أسلم قديماً وأجهر قديماً في مكة فضربوه حتى أدموه وهاجر إلى الحبشة والمدينة، شهد بدراً وما بعدها، وقطع عثمان عطاءه سنتين لإنكاره على الوليد ما ارتكبه زمان ولايته على الكوفة ومات سنة اثنتين وثلاثين. (أسد الغابة: ٣/٢٥٦-٢٦٠، مستدرك الحاكم : ٣/٣٢٠، ٣١٥ وراجع أحاديث عائشة ٦٢-٦٥) (عن معالم المدرستين ج٢)، وحول مقتله راجع للتفصيل سيرة الأئمة ج١ ص٣٧٠ وكذلك ضرب عمار بن ياسر.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٨، باب٤، ص٣٠٢، سيرة الأئمة: القسم الأول ص١١٨ لهاشم معروف الحسني.

(٤) سيرة الأئمة : القسم الأول ص١١٩.

يجر النار إلى قرصه فلا تقبل له ولا لولديه شهادة[1]، والزهراء عليها السلام تتجرع الآلام غصة بعد غصة حتى لحقت بأبيها بعد أيام وهكذا ...، لذا كان الشكل الثالث من التخطيط ضرورياً ليكون شاهد عدل مدى الأجيال، تملأ أفواه مزوري الحقائق بالتراب.

ولعلك تعجب مع وضوح هذا التخطيط وقوة الحجج المتوالية التي لم تنقطع حتى وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) وإذا بالأمر يزول عن مستقره ويتقمص الخلافة غير علي (عليه السلام)، وهو يعلم أن محل ابن أبي طالب منها محل القطب من الرحى، ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير[2].

وانه لعجيب فعلاً، ولو لم يكن حقيقة ثابتة أجمع عليها المؤرخون لما صدّقنا به، وقد أوجدت في عين أمير المؤمنين قذى، وفي الحلق شجى، وفي القلوب جمرة

---

(١) سيرة الأئمة : القسم الأول، ص١١٨.

(٢) من كلمات لأمير المؤمنين (عليه السلام) في الخطبة الشقشقية في نهج البلاغة.

لا تطفأ إلى يوم القيامة حتى ينتصف المظلوم من الظالم، ونعم الحكم الله والخصم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)[1]، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) بهذا الصدد: (إن حقوق الناس تثبت بشهادة شخصين، وقد أنكر حق جدي أمير المؤمنين وعليه سبعون ألف شاهد كانوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غدير خم)[2].

وعلى أية حال، فليست هذه الحالة فريدة في التأريخ، بل هي تتكرر كلما تكررت ظروفها الموضوعية، وما دامت النفس الأمارة بالسوء الميالة لاتباع الهوى

---

(١) من خطبة الزهراء التي احتجت بها على الصحابة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). (المصنف). راجع شرح النهج لابن ابي الحديد : ج١٦ ص٢١٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٧ باب٥٢ ص١٥٨.

وإشباع الشهوات والنزوع إلى التسلط وحب الجاه، وقد عشنا مثلها فإلى الله المشتكى[1].

والذي أريده من هذا البيان ليس فقط ترسيخ هذه العقيدة والدفاع عنها وإن كان هذا مطلباً مهما، لكني بالإضافة إليه أقول: إن العلماء وعلى رأسهم المرجعية الشريفة هم ورثة الأنبياء[2]، ليس فقط في الحقوق والامتيازات، وإنما في الوظائف والمسؤوليات والواجبات، خصوصاً وقد أمرنا بالتأسي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(الأحزاب:٢١).

ومن تمام التأسي والوراثة إعداد البديل بغض النظر عن كونه واحداً أو أكثر، وتربيته وتأهيله لهذا المنصب الإلهي الشريف، وأي تقصير فيه غير مغتفر لا

---

(١) يشير (دام ظله) بذلك إلى ما حصل من حركات (انقلابية) على وصية السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) رغم النصوص والإشارات المتكررة.

(٢) الكافي: ٣٢/١.

عند الله سبحانه ولا عند رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا أوليائه العظام ولا عند المجتمع، وبعد أن يطمئن إلى إكمال إعداد البديل علمياً وفكرياً وأخلاقياً وعقائدياً - وهي المقومات الأربعة لشخصية العالم الديني، بل كل مسلم واعٍ مخلص- يجب أن يشير إليه صريحاً، وهذا هو الشكل الأول من التخطيط.

وأما الشكل الثاني فيؤدى بالإشادة بمجموعة من الفضلاء الورعين المخلصين من أهل الخبرة الذين يطمئن إلى استقامتهم على الطريقة وإنصافهم الحق ونزاهتهم في بيانه وبصيرتهم في الأمور، حتى يرشدوا المجتمع بإخلاص وبلا لبس وإجمال وغموض إلى المرجع البديل.

وأما الشكل الثالث ففيه صنفان من الضوابط والمعايير والشروط، فمنها شروط ثابتة، وهي الاجتهاد والعدالة وغيرها من المذكورات في الرسائل العملية، ومنها شروط متحركة بحسب الزمان والمكان والظروف الموضوعية التي تعيشها المرجعية الشريفة، وهذه يجب طرحها بحسب الحاجة وفي وقتها المناسب. وهذا الكلام

كله على نحو الإشارة والإجمال، وللتفصيل محله المناسب.

هذا بالنسبة لتكليف المرجعية، وفي مقابله توجد مسؤولية على الأمة يجب أن تعيها وتؤديها، وهي سؤال المرجع عن البديل، فإذا عينه كان من واجبهم الالتفاف حوله والإشادة به ودلالة المجتمع عليه، وقد تكاملت هذه التربية عند أصحاب الأئمة (عليهم السلام)، فكانوا يسألونهم: (مَنْ الحجة بعدك)[1] و(إلى من المفزع إذا حدث حادث)[2] وهكذا، وإذا ذهب إمام فلم يكونوا يصدّقون كل من يدعي الإمامة، بل يجرون له الامتحانات التي لا ينجح فيها أي إمام[3]، كامتحانهم لجعفر أخي الإمام العسكري (عليه السلام) الذي ادعى الإمامة بعد أخيه (عليه السلام).

---

(١) أصول الكافي : كتاب الحجة باب الإشارة والنص على الأئمة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع كتاب أصول الكافي/كتاب الحجة.

(٦٦)

ماذا خسرت الأمة
حينما ولت أمرها من لا يستحق؟[1]

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، والحمد لله الذي جعلنا من الموفين بعهده وميثاقه الذي واثقنا به من ولاية ولاة أمره والقوّام بقسطه، ولم يجعلنا من الجاحدين المكذبين بيوم الدين، وصلى الله على رسوله والأئمة الميامين من آله وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) محاضرة ألقاها سماحة آية الله الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على حشد من فضلاء وطلبة الحوزة العلمية يوم ٢٥ صفر ١٤٢٣ هـ المصادف ٨ آيار٢٠٠٢م في مسجد الرأس الشريف مجاور الصحن الحيدري المطهر بمناسبة ذكرى وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

كانت وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الاثنين الثامن والعشرين من صفر على ما هو المشهور[١]، فتكون رزية يوم الخميس كما سماه عبد الله بن عباس[٢] يوم الرابع والعشرين من صفر أي في مثل يوم أمس، وكانت رزية حقاً، إذ انقطع في ذلك اليوم آخر أمل لتمسك الأمة بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الإمام والخليفة من بعده، وأعلنوا معارضتهم الصريحة والواضحة لهذا التعيين، لذلك قال (صلى الله عليه وآله وسلم) لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)[٣] ، وأوصى أمته بهم خيراً، ولو كان يعلم أن الأمر يؤول إليهم لما احتاج إلى الوصية بهم، وفي حديث للإمام الصادق (عليه السلام) يعبر فيه عن ألمه العميق من تضييع

---

(١) منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل للشيخ عباس القمي ج١ الفصل السابع، تأريخ الطبري المجلد الثاني ص١٩٧ ، سيرة بن هشام ج٤/ اليوم الذي قبض الله تعالى فيه نبيه الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٢) تأريخ الطبري المجلد الثاني السنة الحادية عشر.

(٣) منتهى الآمال ج١ ص٢٠٥.

الأمة لبيعة يوم الغدير ولحق أمير المؤمنين فيقول: (إن حق الرجل يثبت بشاهدين، وقد أضيع حق جدي أمير المؤمنين وعليه سبعون ألف شاهد)[1].

ولا أريد أن أناقش أسباب هذا التضييع وإهمال الأمة لهذا الحق الذي أخذه الله على كل المؤمنين، فلهذه المناقشة محل آخر، لكنني أعتقد أن أحد هذه الأسباب والذي لا زال في ذهن الناس مما يقلّل من خطورة هذا التضييع هو القصور في فهم النزاع، فقد فهموه على أنه نزاع بين شخصين، هما علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومن نازعه الأمر، فهم لا ينكرون فضل علي (عليه السلام) وسابقته وجهاده وعلمه وقربه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وشجاعته وفناءه في الله، لكنهم يرون أن المقابل أيضاً من السابقين إلى الإسلام وثاني اثنين إذ هما في الغار وصهر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبدري وأحدي، بل حاولوا تلفيق بعض المناقب ليساووه بأمير المؤمنين أو يقتربوا منه (عليه

---

(١) البحار ج٣٧ باب٥٢ ص١٥٨.

السلام)، وإزاء هذه المقارنة لم يجدوا المسألة مهمة بهذه الدرجة ولا تستحق أن ينشق المسلمون إلى طائفتين عظيمتين، ولا جدوى في البحث فيها فقد أكل عليها الدهر وشرب.

ولو فهموها بصورتها الصحيحة لغيروا عقيدتهم، ولما وجدوا أي تردد في قبول المذهب الحق، لأن الخلاف ليس بين شخصين -وإن كان بحد ذاته دليلاً كافياً لسمو علي على غيره كسموّ الثريا على الثرى- وإنما بين مبدأين وخطين كان علي (عليه السلام) رمز الأول ومنافسه رمز الثاني:

الأول: مبدأ وخط رسمه الله تبارك وتعالى خالق السموات والأرض العالم بخفيات الأمور وبواطن النفوس وبما كان وسيكون، واختاره للأمة لتصل إلى كمالها المنشود، وبلّغه رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) في يوم الغدير.

يقف في أول الخط علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومن بعده الحسنان سبطا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن بعدهما الأئمة الطاهرون الذين

أطبقت الأمة على نزاهتهم وعلمهم وتمثيلهم الكامل للشريعة الإلهية، ومن بعدهم العلماء العارفون الأتقياء الصالحون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الثاني: خطٌّ يصنعه البشر بأهوائهم وأساليبهم الشيطانية من قهر وإذلال أو إغراء بالمال أو ظلم وتعسف أو تضليل وتمويه وادعاءات باطلة، وكان الآخر رأس هذا الخط، فقد اختارته قريش – كما يقول الخليفة الثاني – وليس الله الذي اختاره، ويتتابع على هذا الخط معاوية الذي يقول: والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتزكوا، وإنما لأتأمّر عليكم[١]، ومن بعده يزيد شارب الخمر على منابر المسلمين والذي أحرق الكعبة بالمنجنيق وقتل ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[٢]،

---

(١) منتهى الآمال : الفصل الثالث ص٤٣٥ عن البحار ج٤٤ ص٤٩.

(٢) تأريخ الطبري المجلد الثالث، سيرة الأئمة لهاشم معروف الحسني ج٢ منتهى الآمال ج١ الباب الخامس ، معالم المدرستين ج٥/ يزيد في أفعاله وأقواله (روى صاحب الأغاني: أن يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي في

ومن بعده الآخرون الذين سفكوا الدماء وهتكوا الأعراض ونشروا الفساد وضلّوا وأضلّوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾(الأعراف:٣٨).

وعندما تعرض المقارنة بهذا الشكل، ولو استوعبها الصحابة والأجيال جميعاً بهذا الشكل لما ترددوا في الإيمان بصحة الخط الأول والتمسك به، على أنهم غير معذورين من أول الأمر، لأن القرآن صريح ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾(الأحزاب:٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(القصص:٦٨)، بل إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه لم يكن له هذا الحق حينما عرض عليه بنو عامر أن يسلموا مقابل أن يجعل لهم الأمر من بعده، فقال (صلى الله عليه وآله

الإسلام من الخلفاء وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه...).

وسلم): (ليس الأمر لي، وإنما هو بيد الله يختار له من يشاء)[1].

ومحل الشاهد أني اعتقد أن طرح الموضوع بهذا الشكل يكون أجدى وأوضح، ولكي نزيده وضوحاً نطرح سؤالاً، وهو: ماذا خسرت الأمة بتضييعها وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الخليفة من بعده؟ وماذا ترتب على هذا الإهمال من نتائج سلبية؟ وحينما أتناول هذا البحث فإني لا أريد فقط أن أناقشها كقضية تأريخية، وإن كانت من الأهمية بمكان؛ لابتناء أصل من أصول الدين وهو أصل الإمامة عليها.

ولكن الذي أريده هو الاستفادة من هذا الدرس واستخلاص العبرة، لأن الإمامة بالحمل الأولي وإن كانت مختصة بالأسماء المعينة إلا أنها بالحمل الشايع أعني النيابة العامة عن الإمام وولاية أمر المسلمين المتمثلة بالمرجعية الشريفة الجامعة لشروط القيادة مستمرة إلى أن يرث الأرض ومن عليها الإمام المنتظر (عليه السلام)،

---

(١) السيرة النبوية : ج٢/ عرض الرسول نفسه على بني عامر.

فإذن يبقى باب هذه النتائج السلبية التي سنتعرض لها بإذن الله تعالى مفتوحاً لها كلها أو بعضها كلما ولت الأمة أمرها إلى من لا يستحق، فيكون من الضروري الالتفات إليها، فنعود إلى أصل السؤال، وهو: ماذا خسرت الأمة عندما ولّت أمرها غير صاحب الحق الشرعي؟ وماذا ترتّب على ذلك من نتائج سلبية؟:

النتيجة الأولى: تصدي أناس غير مؤهلين لإمامة الأمة.

فمن المعلوم أن أية رسالة وأية آيديولوجية - بتعبير اليوم - لا بدّ أن يكون حاملها مستوعباً لها بشكل كامل فهماً وتطبيقاً، بحيث تكون هذه العقيدة هي الموجهة له في كل سلوكه وتصرفاته وأفكاره وعلاقاته، ولم يكن القوم كذلك، وإنما هم أناس عاديون كبقية أفراد المجتمع، ويوجد كثير غيرهم ممن استوعب الرسالة وجسّدها في حياته خيراً منهم، وقد كانوا يعترضون على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته ويتمردون على

أوامره[١] حتى آخر حياته؛ بتخلفهم عن جيش أسامة[٢]، وعدم تلبية أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما طلب قرطاساً في رزية يوم الخميس[٣].

وكانت الجاهلية تعيش في نفوسهم، حيث قضوا أكثر أعمارهم فيها، وقد كشف عن عدم أهليتهم جهلهم وتخبّطهم في الأمور، ويصف أمير المؤمنين إمرتهم المنحرفة في الخطبة الشقشقية: (فَيَا عَجَباً، بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها فِي حَيَاتِه إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِه - لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا - فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةِ خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا - أي تجرح جرحاً عظيماً-، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ فِيهَا وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ - لَعَمْرُ اللهِ - بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ - وهو إباء الفرس عن ركوب ظهره-،

---

(١) راجع هامش (٤) ص١٨٨، والهوامش ص١٨٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ج٤/ أمر الرسول بإيفاد بعث أسامة.

(٣) راجع هامش (١) ص ١٨٩.

وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ – أي سير غير مستقيم –)[1]. حتى قال الثاني: (كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال)[2] بعد أن نهى عن زيادة المهر عن حد معين، فأجابته امرأة: أما سمعت قوله تعالى: (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) (النساء:٢٠).

وقد أشكلت عليهم الكثير من المسائل حتى الاعتيادية منها التي كانت تتكرر في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كالصلاة على الجنائز، ولما سئل الثاني عن سبب قلة استفادتهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ألهانا الصَّفْقُ بالأسواق[3]، وكانوا يشككون حتى بنبوة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعصمته، فيقول له أحدهم

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد : ج١ شرح الخطبة الشقشقية.
(٢) الغدير : المجلد الأول ص١٨٢ والمجلد السادس ص٩٨.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي الجزء الرابع عشر، ص ١٣٤.

وجهاً لوجه: (أنت الذي تزعم أنك رسول الله)، أو يقولون عنه: (إن الرجل ليهجر)[1].

في مقابل ذلك كان هناك شخص يعدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إعداداً خاصاً لكي يتسلم هذا الموقع، ذاك هو علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فاستمع إليه يتحدث عن هذه التربية الخاصة: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعي مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّمَ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلى صَدْرِه ، وَيَكْنُفُنِي في فِرَاشِه، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه، وَمَا وَجَدَ لي كَذْبَةً في قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً في فِعْلٍ).. إلى أن قال (عليه السلام): (وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لي في كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِه، وَ يَأْمُرُني بِالاِقْتِدَاءِ بِه وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ في كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ ،

---

(١) تأريخ الطبري : المجلد الثاني ج٣ السنة الحادية عشر، سيرة الأئمة الاثنى عشر : القسم الأول/ مع النبي في ساعة الوداع.

فَأَرَاهُ وَ لاَ يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَ لَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ)[1]، وفي نهاية خطبة مماثلة أخرى يسأل (عليه السلام) مستنكراً: (فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَ مَيِّتاً ؟)[2].

هكذا كان يتم تهيئة الإمامة البديلة، أما هؤلاء فلم يتلقوا شيئاً من ذلك، لذا فقد أفرز تصدي هؤلاء غير المؤهلين عدة آثار خطيرة:

١- تشوّه صورة الإسلام نفسه، لأن كثيراً من الأمم والشعوب دخلت الإسلام بعد رسول الله (صلى

---

(١) نهج البلاغة : شرح الشيخ محمد عبده ج٢ ص١٥٧.

(٢) نهج البلاغة : شرح الشيخ محمد عبده ج٢ ص١٧١-١٧٢.

الله عليه وآله وسلم)، فهي لم تأخذه من مصدره، وإنما نقل لها عبر كلام وسلوك أصحابه، ولما كان هؤلاء غير مؤهلين لتمثيل الإسلام بصورته النقية الكاملة ولم يعرف المسلمون الجدد غير هذه الصورة المعروضة أمامهم فَتَبنّوها على أنها الإسلام الحقيقي، وتزايد هذا البعد عن الإسلام بمرور الزمن، حتى صرت ترى أقواماً لا تفقه من الإسلام شيئاً غير الاسم وبعض الشكليات.

٢- تجرّي أعداء الإسلام خصوصاً اليهود عليه، وما كانوا يستطيعون أن يظهروا شيئاً منه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لعدم وجود ثغرة يمكن أن يدخلوا منها، أما وقد تصدّى لهذا الموقع العظيم ناس غير مؤهلين لهذا الموقع، ويمكن التغلب عليهم وإحراجهم، فمن السهولة إذن هزّ ثقة المسلمين بدينهم بتكرر الفشل من قادتهم، وبالنتيجة تخليهم عن هذا الدين، فلم يكن من الغريب حصول هذه الهجمة العنيفة من الامتحانات العسيرة والمتنوعة التي أحرج بها

اليهود الخليفة الاول والثاني وتزعزعت ثقة المسلمين وشعروا بالإحباط، وكادوا يرتدون لولا وجود أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمرصاد، الذي كان يجيبهم على كل أسئلتهم ويردّ كيدهم إلى نحورهم[1].

٣- انفتاح باب الطمع بهذا المنصب الشريف لكلّ محبي الرئاسات والجاه واتباع الهوى، بعد أن أصبح نيله ليس بالاستحقاق وفق معايير الرسالة، وإنما هو لمن غلب وقهر ولو بالسيف، حتى أصبح مستساغاً أن يولي معاوية ابنه يزيد المعروف بالفسق والفجور على رقاب المسلمين.

النتيجة الثانية: فتح باب الاجتهاد مقابل النص.

أي الحكم والتشريع بالآراء الشخصية خلافاً للنص الإلهي الحكيم، وهو يعني أن الإنسان ينصّب نفسه مشرعاً وإلهاً يطاع في مقابل ألوهية الله تبارك وتعالى

---

(١) الغدير : المجلد السابع ص١٧٧ – ١٧٩.

الذي هو وحده له حق التشريع والحاكمية، وهو ما رفضه الله تبارك وتعالى رفضاً قاطعاً، وجعل كل حكم وتشريع ليس مستنداً إلى الشريعة المقدسة جاهلية، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، وفي آية أخرى ﴿الظَّالِمُونَ﴾، وفي ثالثة ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٤، ٤٥، ٤٧)، وكان من شروط الإيمان الكامل: التسليم والإذعان لحكم الله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(النساء:٦٥)، لكن القوم فتحوا باب الاجتهاد واسعاً، ولم يكترثوا كثيراً للنص الشرعي لعدة أسباب:

١- جهلهم وعدم اطلاعهم الكامل على أحكام الشريعة، فراحوا يستنبطون من أنفسهم ما يسد نقصهم.

٢- لأجل المحافظة على الأغراض والمصالح التي أرادوها فلا بد من تعطيل النصوص التي تتعارض مع المنهج الذي اختطوه، وتبرير الأفعال المخالفة بصراحة لحكم الله تبارك وتعالى.

٣- تغييب الممثل الحقيقي واللسان الناطق بالشريعة.

وقد عطل هذا الاجتهاد الكثير من التشريعات التي كانت مصدر خير للأمة، ومنها الزواج المؤقت الذي قال عنه أمير المؤمنين (عليه السلام): (لولا نهي فلان عن المتعة ما زنى إلا شقي)[١]، وبالمقابل برّر هذا الاجتهاد أشنع المنكرات، فمثل مالك بن نويرة[٢] الذي شهد له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجنة يُقتل، ويدخل خالد بزوجته في نفس الليلة، ويأتي جواب

---

(١) الكافي:٥/٤٤٨.

(٢) مالك بن نويرة الحنفي اليربوعي من أرادف الملوك ومن شجعان عصره وفصحائهم وكان من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن خلّص أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)، انتظر بقومه بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن يتبين موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) فأرسل أبو بكر إليهم خالد بن الوليد فغدر بهم وقت الصلاة وأمر بقتل مالك حين رأى جمال امرأته.

الخلافة ببرود: تأوّل خالد فأخطأ[١]. ويخرجون لقتال إمام زمانهم بكل المقاييس التي عندهم في معارك طاحنة في الجمل[٢] وصفين[٣]، وكله اجتهاد يؤجرون عليه وإن أخطأوا فلهم أجر واحد.

وقد تأصل هذا الاجتهاد فيما بعد وتعمق، ووضعوا له أصولاً وقوانين، وأصبحت مذاهب في مقابل مذهب الحق.

النتيجة الثالثة: عرقلة تربية الأمة وتكاملها.

فقد شاءت الإرادة الإلهية أن تنقذ البشرية بهذه الرسالة المباركة من حضيض الجاهلية التعبة إلى سمو التوحيد وطهارة الإيمان وسعادة الدارين، وقد قدر لهذه المسيرة أن تتكامل لتنشأ أمة متكاملة على يد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة المعصومين من آله،

---

(١) راجع كتاب السقيفة للشيخ المظفر: ٢٦.
(٢) تأريخ الطبري المجلد الثالث الجزء الخامس.
(٣) نفس المصدر.

لكن إبعاد الأئمة (عليهم السلام) عن موقع قيادة المجتمع أدى إلى عرقلة هذه المسيرة وبطئها من عدة جهات:

١- إن من العناصر المهمة في التربية هو القدوة والأسوة الحسنة على تعبير القرآن، لأنه يمثل التطبيق للأفكار التربوية، فإذا غاب القدوة أو كان القدوة منحرفاً فلا ينفع الكلام مهما كثر، ويبقى مجرد حبر على ورق، والقوم لم يكونوا يمثلون قدوة حسنة، ولم يستطيعوا عكس صورة نقية للسلوك الإسلامي، بل إنه على مرور الأيام كان النموذج المعروض مناقضاً تماماً لتعاليم الإسلام، فكيف نتوقع منه أن يربي الأمة ويقودها نحو التكامل؟ ففي حين يقرأ المسلم في أخلاق الإسلام (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) يجد في التعامل تفضيل العرب على غيرهم الذين يسمونهم الموالي، ويعتبرونهم مواطنين من الدرجة الثانية، وبينما يقرأ في القرآن ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(الشورى:٢٣) يجد الخلافة تتبع أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تحت كل حجر

ومدر قتلاً وتشريداً وسجناً، وبينما يقرأ حرمة شرب الخمر في القرآن يجد حاكم المسلمين يشربه على منابر المسلمين ويتقيأه في محرابهم.

٢- فرص الانحراف الكثيرة التي توفرت للناس في ظل الخلافة المنحرفة، والنفس بطبيعتها ميالة للشهوات مع غياب الرادع الذي يحصّن الأمة من الانحراف وهم الذين عناهم الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(آل عمران: ١٠٤) وقد بدأت هذه النفوس الأمارة بالسوء تظهر في أيام الخلافة الأولى في وقت مبكر، وبدأت الدنيا تنمو في قلوبهم، وأصبحت هذه الامتيازات والمصالح واقعاً ثابتاً لا يرضون بتغييره، بحيث أن عبد الرحمن بن عوف الذي جُعل حكماً في أمر تعيين الخليفة من بين الستة أهل الشورى يشترط على علي (عليه السلام) أن يبايعه بشرط أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله

عليه وآله وسلم) وسيرة الشيخين[1]، فما هي سيرة الشيخين التي يضمّها عبد الرحمن إلى كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ إنها هذه الامتيازات الطبقية وهذه الدنيا المحضة التي وفرتها لهم الخلافة الأولى، بحيث أن عبد الرحمن هذا وأمثاله تركوا من الذهب ما يُكسّر بالفؤوس – حسب ما ينقل التأريخ – ولم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) ليوافق على هذا الشرط فيكون منه إمضاءً واعترافاً بهذه السيرة، لأن هذه السيرة إن كانت موافقة للكتاب والسنة فلا داعي لذكرها، وإن كانت مخالفة فارمِ بها عرض الجدار، فما الوجه لضمّها إلى أصلَي التشريع.

٣- الصورة المشوهة للشريعة التي كانت معروضة للأمة من خلال العلماء والرواة المتزلفين للخلفاء والطامعين بما في أيديهم، فكيف نتوقع من شخص لم يشاهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) بحار الأنوار: ٣٩٩/٣١.

ولم يطلع على مواقف علي (عليه السلام) مباشرة أن يوالي علياً ويتبعه، وهو يسمع صحابياً يروي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن الآية الشريفة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٥) نزلت في علي بن أبي طالب.

فلا نتوقع من أغلب المسلمين في الأرض إلا أن يحملوا هذه الصورة المشوهة للإسلام، لأنهم لم يسمعوا غيرها، ولم يشاهدوا غيرها، فكان طبيعياً أن يعتقدوا جازمين أن هذا هو الإسلام.

ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن تغيّب الإمام الثاني عشر (عليه السلام) هذه المدة الطويلة إلى أن يأذن الله تعالى له بالظهور، كل ذلك لتستمر تربية الأمة مدة أطول، ولتمر بتجارب وابتلاءات وتمحيصات أكثر، حتى تصل إلى مستوى النضج والكمال المطلوب الذي يؤهلها لمواصلة مسيرة الكمال مع الإمام المهدي (عليه السلام)،

بينما لو قدر لهذه الأمة أن تتربى في أحضان الأئمة المعصومين (عليهم السلام) لوصلت إلى درجة الكمال قبل هذا التأريخ بكثير.

النتيجة الرابعة: تمزق الأمة وتشتتها وتفرقها شيعاً وأحزاباً ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(الروم:٢٣).

وهذه نتيجة طبيعية للابتعاد عن الإمامة الحقيقية، لأن سر تشريع الإمامة هو تحصين الأمة من التمزق والانحراف، كما قالت الزهراء (عليها السلام) في خطبتها الشهيرة بعد وفاة أبيها (صلى الله عليه وآله وسلم): (وَجَعَلَ إمَامَتَنَا نِظَاماً للملّة)[1] أي تنتظم بها أمورهم وتستقر، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّه جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣) ﴿ولا تَنَازَعوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(الأنفال:٤٦)، وحبل الله الممدود من السماء إلى

(١) البحار : ج٦ باب ٢٣ ص٣١٥.

الأرض هما الثقلان كتاب الله وعترة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) - كما بينتُ في شكوى القرآن[1] -.

مضافاً إلى أن هذا الموقع بعد أن خرج عن مستقره وأبعد عنه أهله أصبح مطمعاً لكل حالم به، وشهوة التسلط أقوى الشهوات، وفيها استجابة للأنانية واستكبار النفس، فمن الطبيعي أيضاً أن تكثر الصراعات حول هذا المنصب، وتداس في خضم هذا الصراع كل القيم والأخلاق.

وتكفي وقفة تأمل واستطلاع بسيط للتأريخ لنقرأ بكل أسف وألم يفتت القلوب المآسي التي جرّها التنازع على السلطان، والخسائر الفادحة في الأنفس والأعراض والأموال التي هدرت في هذا الصراع، فمن الذي يتحمل هذه المسؤولية؟ ومن الذي فتح هذا الباب على المسلمين؟ وماذا يجني من يحدث هذا الفتق في أمة الإسلام؟

وخير معبر عن هذه الآلام وهذه الخسائر أحد الأدعية الواردة في لعن أعداء آل محمد (صلى الله عليه

---

(١) راجع صفحة ٩١ من هذا المجلد.

وآله وسلم) والبراءة منهم إلى أن يقول: (اللهم العنهم بعدد كل منكر آتوه، وحق أخفوه، ومنبر علوه، ومؤمن أرجوه، ومنافق ولّوه، وولي آذوه، وطريد آووه، وصادق طردوه، وكافر نصروه، وإمام قهروه، وفرض غيروه، وأثر أنكروه، وشر آثروه، ودم أراقوه، وخير بدلوه، وكفر نصبوه، وإرث غصبوه، وفيء اقتطعوه، وسحت أكلوه، وخمس استحلوه، وباطل أسسوه، وجور بسطوه، ونفاق أسرّوه، وغدر أضمروه، وظلم نشروه، ووعد أخلفوه، وأمان خانوه، وعهد نقضوه، وحلال حرموه، وحرام أحلوه، وبطن فتقوه، وجنين أسقطوه، وضلع دقوه، وصك مزقوه، وشمل بددوه، وعزيز أذلوه، وذليل أعزوه، وحق منعوه، وكذب دلسوه، وحكم قلبوه، اللهم العنهم بكل آية حرفوها، وفريضة تركوها، وسنة غيروها، ورسوم منعوها، وأحكام عطلوها، وبيعة نكثوها، ودعوة أبطلوها، وبينةٍ أنكروها، وحيلة أحدثوها، وخيانة

أوردوها، وعقبة ارتقوها، وشهادات كتموها، ووصية صنعوها)[1].

ولو شئنا لذكرنا أمثلة وشواهد على كل فقرة، لكنها مما لا تخفى على المطلع على التأريخ، فأي قلب لا يذوب أسىً على ما سببه ذلك التضييع للحق الصريح؟!.

النتيجة الخامسة: عزل الدين عن إدارة الحياة بكل أبعادها وتفاصيلها.

واقتصاره على الطقوس التعبدية والشؤون الفردية فقط، فإن القوم وإن استطاعوا بالترغيب والترهيب أن يسلبوا السلطة الدنيوية من الإمام (عليه السلام)، إلا إنهم لا يستطيعون بأي حال من الأحوال أن يسلبوا مكانته من القلوب وهيبته في النفوس، ورجوع الناس إليه في شؤونهم الدينية، هذا الانفصال الذي عبر عنه هارون الرشيد – كما يسمونه – لولده المأمون حينما استغرب من تكريمه للإمام الكاظم (عليه السلام) بما لا

---

(١) البحار: ٨٢/٢٦١.

نظير له، فقال: (ويلك، هذا إمام القلوب وأنا إمام الأبدان)[١]، والإمام وإن سكت عن المطالبة بحقه في السلطة الدنيوية من أجل حفظ الإسلام وكيان المسلمين، إلا أنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال التنازل لهم عن الإمامة الدينية أو الاعتراف بهم وإمضاؤهم كممثلين لهذه السلطة، فإن في ذلك خيانة لله ولرسوله وللإسلام، على أن هذا الحق لا يتصور التنازل عنه، فإنه ليس امتيازاً أو موقعاً حتى يتخلى عنه، بل قدرة وقابلية على تلبية احتياجات الأمة، فكل من كان قادراً على ذلك ووجدت الأمة حاجتها وآمالها وطموحاتها عنده أصبح إماماً، وهكذا كان علي (عليه السلام) فما سمعنا انه احتاج إلى أحد في شيء، بل على العكس كانوا يرجعون إليهم في مسائلهم ومشاكلهم وقراراتهم، حتى اشتهر قول الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)[٢]، ولذا

---

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر : القسم الثاني : ص٣٩٠.

(٢) سيرة الأئمة الاثني عشر : القسم الأول : ص٣٠٤.

استدل بعضهم على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) باحتياج الناس إليه واستغنائه عن الناس[1].

وهذا الفصل بين السلطتين ترسخ وتعمق وانعكس على الدين نفسه، فأصبح مرتكزاً في الأذهان أن إدارة شؤون الحياة ليس من شؤون الإمامة الدينية، وأن دورها يقتصر على العبادات وبعض الأحكام الشخصية، والتقوا بذلك مع نظرة الجاهلية: (ما لله لله وما لقيصر لقيصر)، وهذا هو الشرك بعينه، فإن الملك كله لله وحده والحكم كله لله وحده، وما من واقعة إلا ولله فيها حكم، أترى أن الشريعة التي لم تغفل عن تنظيم أبسط التصرفات الحياتية، كالتخلي والنوم والاكل والجماع ووضعت لها أحكاماً وآداباً، فهل تغفل عن وضع أنظمة وقوانين تنظم حياة المجتمع من جميع الجهات؟ وهذه

---

(١) نسب الاستدلال إلى الخليل الفراهيدي (رحمه الله) وروي عن الحارث بن المغيرة قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): بأي شيء يُعرف الإمام؟ قال بالسكينة والوقار، ... وتعرفه بالحلال والحرام، وبحاجة الناس إليه، ولا يحتاج إلى أحد) (بحار الأنوار: ١٥٦/٢٥).

حقيقة دامغة لا تقبل الشك، إلا أنهم لا يذعنون لها لعدة أمور:

١- إن الشريعة لا تنسجم مع أهوائهم وأنانيتهم وحبهم للاستئثار بالفيء وسائر الامتيازات وتتعامل مع الجميع على حد سواء.

٢- إن تحكيم الشريعة فيه إظهار لجهلهم وقصورهم وتقصيرهم، وهو ما تأباه نفوسهم الأمارة بالسوء.

٣- إن ذلك أيضاً يعني احتياجهم للإمامة الدينية، وبالتالي يعني تفوق أولئك عليهم واستحقاقهم لهذا الموقع بدلاً عنهم.

النتيجة السادسة: حدوث الانفصال بين الأمة والخلافة.

لأن الأمر لم يعد في نظر المتصدين أمر إصلاح وهداية وتكميل النفوس ونيل رضا الله تبارك وتعالى حتى تتعلق بهم الأمة وتهفو إليهم القلوب، بل زعامة وملك ومصالح واستئثار واستعلاء، وقد عبر عنه القوم من أول يوم وهم بعد في السقيفة فكان لسانهم: إنما

السلطان سلطان قريش فلا ينازعنا فيه أحد[١]، وكانت المسألة أوضح بالنسبة للأقوام الأخرى التي دخلت الإسلام، وقد أشعروهم بأن الخلافة ملك للعرب، فإذا كان ملكاً عضوضاً وهم المستفيدون منه فما الذي يشد سائر قطاعات الأمة إليهم؟ وما الذي يحثهم على الدفاع عنهم؟ وما هي العلقة التي تربطهم بهم؟ بل على العكس سادت روح الكراهية والحقد والانتقام كما حصل لأبي لؤلؤة الفارسي غلام المغيرة بن شعبة الذي سأم من كثرة التعيير لقومه الفرس والاستهزاء بهم، فثار لعنصريته ولعصبيته الجاهلية[٢].

وبالمقابل كان هناك علي (عليه السلام) وبنوه الذين ملكوا القلوب، فاستجاب الله تعالى بهم دعوة جدهم إبراهيم ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[٣] والذي لم تستطع الخلافة بكل جبروتها أن تنتزعه منهم،

---

(١) سيرة الأئمة : القسم الأول ، السقيفة.
(٢) تأريخ الطبري المجلد الثالث الجزء الخامس.
(٣) إبراهيم : ٣٧.

وقضية هشام بن عبد الملك واضحة في أذهانكم عندما عجز عن الوصول إلى الحجر لازدحام الناس، فتنحى إلى زاوية في البيت الحرام، وما أن قدم الإمام السجاد (عليه السلام) حتى انفرج عنه الناس سماطين، فمشى بكل وقار وهيبة حتى وصل إلى الحجر الأسود، وهشام ينظر[1].

---

(١) رواها السبكي في طبقات الشافعية أن هشام بن عبد الملك حج في بعض السنين فطاف حول البيت وحاول أن يلمس الحجر الأسود فلم يجد لذلك سبيلاً من كثرة الزحام .. وفي ما هو ينظر إلى الناس إذ أقبل الإمام زين العابدين وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً .. فانفرج له الناس عنه ووقفوا له إجلالاً وتعظيماً حتى إذا استلم الحجر وقبله والناس وُقَفٌ ينظرون إليه وكأنما على رؤوسهم الطير فلما مضى عنه عادوا إلى طوافهم، هذا وهشام بن عبد الملك ومن معه من أهل الشام يرون كل ذلك ونفس هشام يعبث فيها الحقد والحسد.، وفي هذه الحادثة ارتجل الشاعر الفرزدق أبياته المشهورة والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته البيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرمُ
هذا ابن خيرِ عبادِ اللهِ كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلمُ

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) رغم تواضعه بين أصحابه حتى كأنه أحدهم إلا أن له هيبة عظيمة في نفوسهم كما وصفه ضرار بن ضمرة لمعاوية[١].

وذاب أصحابهم في حبهم قربة إلى الله تعالى ووفاء لجدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعرفاناً لحقهم عليهم، وتحملوا في سبيل ذلك ما تقشعر منه الأبدان، فهذا ميثم بن يحيى التمار تقطع يداه ورجلاه ويصلب على جذع نخلة، فيطلب من الناس الاجتماع حتى يحدثهم بفضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلم يمهله الفسقة حتى قطعوا لسانه[٢]، وهذا حجر بن عدي

---

(١) نقل الرواة عن ضرار بن ضمرة أنه دخل على معاوية يوماً فقال له يا ضرار صف لي علياً، فقال له: اعفني يا معاوية، فقال له: لا أعفيك، فقال له ضرار: أما إذا كان ولا بد من ذلك، فقد كان والله بعيد المدى شديد القوى ... إلى أن قال ... ونحن والله مع قربه منا ودنوه إلينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا ...

(٢) إن عبيد الله بن زياد قال لميثم التمار بعد أن قبض عليه: تبرأ من علي بن أبي طالب، فقال له: فإن أنا لم افعل؟

يؤخذ مقيداً إلى الشام ويحفر له القبر ويفرش له النطع ويؤمر بسب أمير المؤمنين وإلا فالقتل ومعه ابنه، فيختار

قال: إذن والله لأقتلك، قال: لقد أخبرني مولاي أنك ستقتلني مع تسعة أخر على باب عمرو بن حريث، قال ابن زياد: لنخالفنه كي يظهر كذبه، قال ميثم: كيف تخالفه، فوالله ما أخبر إلا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جبرئيل عن الله تعالى، فكيف تخالف هؤلاء؟ ولقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه وأين هو من الكوفة وأنا أول خلق الله أُلجم في الإسلام، فلما رفع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث، قال عمرو: قد كان والله يقول إني مجاورك، فأمر جاريته بكنس تحت خشبته ورشه وتجميره، فجعل ميثم يحدث بفضائل أهل البيت (عليهم السلام) ومثالب بني أمية وما سيصيبهم من القتل والانقراض، فقيل لابن زياد قد فضحكم هذا العبد، فقال: ألجموه، فألجموه كي لا يتكلم فجاءه في اليوم الثالث لعين بيده حربتين وهو يقول: أما والله لقد كنت ما علمتك إلا قوّاماً صوّاماً، ثم طعنه في خاصرته فأجافه (أي حصل جوف في خاصرته من الطعنة) ثم انبعث منخراه دماً في آخر النهار فخضب لحيته بالدماء واستشهد قبل قدوم الإمام الحسين (عليه السلام) إلى العراق بعشرة أيام.

ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، ويقدم ابنه ليحتسبه عند الله تبارك وتعالى ولئلا يعظم على الابن قتل أبيه فيتراجع، ثم قدم فقتل صابراً محتسباً[١].

وهذا عمار بن ياسر يقاتل في صفين على كبر سنه ويقول: (والله لو ضربونا بأسيافهم حتى أبلغونا سعفات هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل)[٢].

وأصحاب الحسين (عليه السلام)، وما أدراك ما أصحاب الحسين (عليه السلام)، الذين لم ير لهم نظير في الولاء والصدق والإخلاص والتضحية، يقدم أحدهم

---

(١) حجر بن عدي الكندي الكوفي من أصحاب أمير المؤمنين ومن الإبدال كان أميراً على بني كنده من قبل أمير المؤمنين (عليه السلام) في معركة صفين وكان أمير الجيش يوم النهروان، وقد استشهد حجر وجمع من أصحابه بسعاية زياد بن أبيه وبحكم معاوية بن أبي سفيان سنة إحدى وخمسين للهجرة.

(٢) تقدمت ترجمته وأسرته، سيرة الأئمة : القسم الأول ص٤٧٤.

على الموت وهو مبتسم، فيقال له: ما عهدناك هازلاً قبل اليوم؛ قال: وكيف لا أبتسم وما بيني وبين معانقة الحور العين إلا أن يميل عليَّ هؤلاء بأسيافهم فألتحق بالأحبة محمد وصحبه[1].

النتيجة السابعة: تأخر ركب الحضارة الإنسانية.

بحيث احتجنا إلى أربعة عشر قرناً لكي نصنع الطائرة والكومبيوتر ونغزو الفضاء، وكان يمكن لهذه الأمور وغيرها مما لم يصل إليه العقل الإنساني إلى الآن أن تتحقق قبل مدة طويلة، لأن اليد الإلهية واضحة التأثير في قيادة ركب الحضارة البشرية بفضل ما بثه الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) من علوم، أو من خلال الإلهام والإيحاء، ولولا الرعاية الإلهية لما استطاع الإنسان أن يهتدي إلى أبسط الأمور، حتى دفن موتاه في التراب لا

---

(١) برير بن خضير الهمداني كان زاهداً عابداً سيد القراء ومن أشراف الكوفة. منتهى الآمال : ج١/ ليلة العاشر من محرم. ونفس الموقف لحبيب بن مظاهر رحمة الله عليه.

يعرفه، حتى بعث الله له غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه[١].

وإن القرآن الكريم ليضم أسرار ومفاتيح العلوم كلها فيه ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(النحل:٨٩)، فيشير إلى غزو الفضاء بالوسائل العلمية: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إلا بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن:٣٣)، وهو سلطان العلم والتكنولوجيا، كل هذه الأسرار ومفاتيح العلوم كانت عند أمير المؤمنين (عليه السلام) علّمه إياه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألف باب من العلم، ينفتح لي من كل باب ألف باب من العلم)[٢].

---

(١) إشارة إلى قصة ابني آدم (عليه السلام) هابيل وقابيل، وذلك عندما قتل قابيل هابيل ولم يكن يعرف عملية الدفن لولا أن بعث الله غراباً يبحث في الأرض فعرف قابيل ذلك، في الآيات من سورة المائدة: ٢٧ – ٣١.

(٢) منتهى الآمال : ج١ في علم أمير المؤمنين (عليه السلام).

وإن شئت الاطلاع على ما كان يمكن أن يقدمه علي وبنوه (عليهم السلام) ليقدموا ركب الحضارة الإنسانية وليوفروا لها السعادة والحياة الطيبة فراجع عدة كتب ألفت في هذا المجال، ولم يكن يحتاج إلى تطبيق معادلات وقوانين احتمالية أو يخوض تجارب طويلة حتى يصل الحقيقة، بل كانت الحقائق العلمية كلها حاضرة في ذهنه، يراها بالبصيرة والوجدان رأي العين، فحفر الكثير من الآبار والعيون وأوقفها للمسلمين في وقت كان الآخرون يعجزون عن التعرف على مواقع وجود الماء، فأين علم الجيولوجيا من هذه المعرفة الدقيقة بطبقات الأرض وما تحتها من كنوز ومعادن، وكان يقول: (لو شئت لاتخذت لكم من هذا الماء نوراً) يقصد توليد الطاقة الكهربائية من شلالات الماء، وغيرها الكثير في مختلف حقول العلم والمعرفة، ثم جاء أولاده من بعده ليبثوا ما تسمح به الحال من علوم الكيمياء والرياضيات والفلك والفيزياء والنبات والحيوان وغيرها.

فإن قلت: إذن ما الذي حبسهم عن إعطاء هذه العلوم التي يحملونها إلى البشرية، وهي مسألة لا تتعلق بتسلمهم موقع القيادة والإمامة وعدمها؟.

قلت: إن التقدم المادي مرتبط تماماً بالتكامل الروحي من خلال البناء الصحيح للعقيدة، ولا بد أن يتقدّما معاً، وإن الأول بدون الثاني يصبح وبالاً على البشرية ويقودها نحو الدمار، كالذي نشاهده اليوم ممن يسمون أنفسهم بالقوى العظمى والدول الكبرى، ولما كانت البشرية قد تخلفت وتدنت في الجانب الثاني وهو العقائدي والأخلاقي فلا يمكن إعطاؤها من الجانب الأول إلا بالمقدار الذي لا يكون خطراً عليها، هكذا اقتضت الإرادة الإلهية أن يلهم الإنسان بعض الأفكار التي طورت حضارة البشر ودلته على اكتشافات وحقائق علمية مهمة في أوقاتها المناسبة، وبالشكل الذي يحفظ توازن المجتمع الإنساني ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩)، ولو كانت مستحقة للمزيد بالتزامها بخط الخلافة الإلهية لما بخل عليها الله تبارك وتعالى بالعطاء، فلا يغتر الإنسان ويظن أنه هو الذي يحقق ذلك،

بل هو من إلهام الله تبارك وتعالى وإيحائه، وللعلماء والمكتشفين كلمات تدل على ذلك، ولو خليّ إلى نفسه لما عرف كيف يتخلص من موتاه بالدفن حتى علمه الغراب -كما ذكرنا-.

هذه بعض النتائج التي أفرزها عدم التزام الأمة بحديث الغدير، وإذا كانت الأمور تعرف بأضدادها كما قالوا، فيمكن أن نعرف سمو المعاني والآثار التي نالها الملتزمون بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، فحق لهم أن يحتفلوا بهذا العيد الأغرّ أعظم عيد في الإسلام، سئل الإمام الصادق (عليه السلام): هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟ قال: نعم، أعظمها حرمة، قال الراوي: وأي عيد هو؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقال: من كنت من مولاه فعلي مولاه)[1]. وفي حديث أبي نصر عن الرضا (صلوات الله عليه) قال: (يا ابن أبي نصر، أينما كنت فاحضر يوم

---

(١) بحار الأنوار: ١٦٩/٣٧.

الغدير عند أمير المؤمنين (عليه السلام)، فإن الله تبارك وتعالى يغفر لكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة ذنوب ستين سنة، ويعتق من النار ضعف ما أعتق في شهر رمضان وليلة القدر وليلة الفطر، ولدرهمٌ فيه بألف درهم لإخوانك العارفين، وأفضل على إخوانك في هذا اليوم، وسرٌ فيه كل مؤمن ومؤمنة، والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)[1].

ونحن كما تعودنا في مثل هذه الكلمات لا نستهدف فقط تثبيت العقيدة وترسيخها والدفاع عنها، وإن كان هذا في نفسه نفيساً، إلا أنه مما لا يقل عنه أهمية أخذ الدروس والعبر منه، وهنا تكمن روح العلم والمعرفة، فالعلم بلا عمل وبلا استفادة منه في الحياة لا قيمة له.

ونحن إذا توسعنا في فهم هذا الموضوع فسنطبق هذه التجربة على كل رسالة إصلاحية تعمل على هداية

---

(١) بحار الأنوار: ٩٤/١١٩.

الناس وتكميل نفوسهم كالمرجعية الشريفة وهي لها شكلان:

الأول: المرجعية الفردية التي يقتصر عملها على استنباط الحكم الشرعي من دون العمل على تطبيقه ودفع المجتمع إلى امتثاله، والأمر راجع إلى المكلف إن شاء طبق أو لا، ولا تتدخل إلا في حدود الشؤون الفردية وما يبرئ ذمم المكلفين كأفراد، وهو عمل ليس بالهين، وقد قاموا بجهود مضنية حفظت لنا فقه آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين)، لكن هذا الشكل خارج عن موضوعنا، لانحسار دورها عن الإمامة الاجتماعية أصلاً.

الثاني: المرجعية الاجتماعية التي لا تكتفي بمستوى النظرية، أي مجرد التقنين والتشريع، وإنما تعمل على تهيئة كل الفرص واتخاذ مختلف الأساليب لإقناع الناس بتطبيق الشريعة في كل تفاصيل حياتهم، وإذا لم تنفع وسيلة جربت أخرى، وقد شبهت الأولى بالأمّ التي تهيئ الطعام لولدها المريض وتترك الباقي عليه، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وقد لا يعرف مصلحته فيموت جوعاً. والثانية تشبه الأمّ التي لا تكتفي بإعداد الطعام،

بل تطيبه وتعمل كل المرغبات والمحفزات لولدها كي يأكل ويحفظ حياته ويستعيد عافيته، ولا شك أن الثانية أرحم وأرأف وأكرم وأصبر من الأولى، أو قل إنها أكثر اتصافاً بالأسماء الحسنى التي ورد الحث على التخلّق بها.

وهذه المرجعية الثانية هي الأكثر التصاقاً بالناس وأعمق تأثيراً فيهم والأكثر تعلقاً بهم، وهي الأجدر بتمثيل دور المعصومين (عليهم السلام)، فلا غرو أن تكون عرضة لطمع المتنافسين، فإذا تصدى لها غير المؤهل لها وصنع (سقيفة) ثانية لإبعاد مستحقيها، ترتبت كل أو بعض الآثار التي ذكرناها، ولا بدّ أن نستفيد من تلك التجربة لنكون واعين وحذرين من تكرارها.

وقد ذكرنا في محاضرتين[1] بمناسبة عيد الغدير عام ١٤٢١ - وطبعت كمقدمة لكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ كاشف الغطاء - الأشكال الثلاثة التي خطط بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) تقدمتا هنا بعنوان (كيف خطط رسول الله (صلى الله عليه وآله) للخلافة من بعده.

للخليفة من بعده، وكيفية تأسي المرجعية به (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا المجال، ومسؤولية الأمة في صيانة هذا الموقع الشريف والتمسك بأهله، فيكون هذا البحث مكملاً له، ومما ذكرنا هناك أن لهذا الموقع شروطاً صنفتها إلى ثابتة ومتحركة، والأولى هي التي دأبت على ذكرها الرسائل العملية، أما المتحركة فتتغير تبعاً للظروف الموضوعية التي تعيشها المرجعية.

اللهم إنا نشهدك أنا ندين بما دان به محمد وآل محمد (صلى الله عليه وعليهم)، وقولنا ما قالوا وديننا ما دانوا به، ما قالوا به قلنا وما دانوا به دنا وما أنكروا أنكرنا ومن والوا والينا ومن عادوا عادينا ومن لعنوا لعنّا ومن تبرأوا منه تبرأنا منه ومن ترحموا عليه ترحمنا عليه، آمنا وسلمنا ورضينا واتبعنا موالينا صلوات الله عليهم، اللهم فتمم لنا ذلك ولا تسلبناه واجعله مستقراً ثابتاً عندنا ولا تجعله مستعاراً، وأحينا ما أحييتنا عليه وأمتنا إذا أمتنا عليه، آل محمد أئمتنا فبهم نأتم وإياهم نوالي وعدوهم وعدو الله نعادي، فاجعلنا معهم في الدنيا والآخرة ومن

المقربين، فإنا بذلك راضون، يا أرحم الراحمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.